

## الفصل الثالث

### إشراق الوعي .. وتاريخ الغياب

#### المبحث الأول : ثامنة السبع الشداد

1. رمزية الأغراض بين الحضور والغياب .
2. البنية الرمزية للممدوح / النموذج .
3. رمزية الأسماء .
4. الممدوح المشكل .
5. الرحلة إلى الممدوح .

#### المبحث الثاني : الغوابر

1. البنية الرمزية للدرع .
2. مظاهر أزمة الروح .
3. الأزمة واللغة .

obeyikan.com

# المبحث الأول

## ثامنة السبع الشداد

### 1. رمزية الأغراض بين الحضور والغياب :

إن الأغراض في الشعر موضوع شائك تعرض له غير واحد من الباحثين، وبين أنه ليس على ظاهره ، وإنما هو شكل فني ، وإطار يتخذ بوصفه تقليداً فنياً يخفي وراءه سرّاً وعجباً . من هؤلاء الدكتور مصطفى ناصف في معظم كتبه وإشارات المتناثرة<sup>(1)</sup> ، لا سيما حديثه عن (معجز أحمد) أو المشكل أو التفرد والتوحد .. وفكرة البطولة في الشعر العربي في قراءته لكل من المتنبي وأبي العلاء وعبد القاهر الجرجاني في الأسرار والدلائل ، فيقول : "هناك سر في شعر كثير سمي باسم المدح"<sup>(2)</sup> ، وكذلك يقول عن فكرة المقاومة والتضاد أو الاختلاف وعلاقتها بشعر المدح وإثارة الإشكال : "هناك الحاجة المستمرة إلى شيء يشبه أن يكون أمراً من علٍ يتعمق العقل العربي . هناك الاتقاء والرفض ، والتفجع بقناع المدح من أجل أن نغني أغنية ماكرة ساذجة خطيرة موحشة"<sup>(3)</sup> . ويقول : "إننا ننادي أنفسنا ، ونخلع كثيراً من ثيابنا ، وعاداتنا ، نريد أن نمثل دور القادرين في بعض اللحظات ، حتى ننسى متاعب وآلاماً وصغاراً غير قليل .. إن المديح إثبات ، ولكن مقدار الإثبات في مثل هذا الشعر ليس كثيراً . إن حدة الإثبات الظاهرة لا تخلو من هذا النفي . هناك (حرب) مستمرة في داخل العقل العربي .. هناك رفض لكثير من جوانب الحياة ، والترف والمال والسلطة ، هناك إحساس غريب بأن الحياة (سقام) .

(1) وكذلك الدكتور وهب رومية في تساؤله : أغراض أم رموز ؟ راجع : شعرنا القديم والنقد الجديد ، ص 139 وما بعدها.

(2) د. مصطفى ناصف : النقد العربي نحو نظرية ثانية ، ص 92 .

(3) المرجع السابق : ص 110 .

فأين العافية ؟ <sup>(1)</sup> - هذا هو سؤال المديح ، أين العافية ؟ أين الوعي المشرق ؟ أين .. ؟  
المديح - إذن - هو زلزلة السكون وهز النفوس وإيقاظها . المديح بحث شاق ومساءلة  
وريب ومغامرة وجود . المديح بحث جديد ومحاولة لإعادة الحياة إلى الحياة ، وعشور  
الإنسان على حقيقة ذاته . في المديح حركة روحية عميقة تكشف عما يكتنف العقل من  
فقد وأزمة وعما ينطوي عليه من هموم وثورة وآمال .

وبداية لا بد من الإشارة إلى أن مديح أبي العلاء - في سقط الزند - استراتيجية فنية  
ذات ظاهر وباطن رمزي ، متفاعلين ، شأنه شأن تقاليد فنية أخرى، ولا غرو فما اهتم  
أبو العلاء بشيء في خطبة الديوان قدر اهتمامه بتحرير فكرة المديح تلك ، وكأنها فكرة  
جوهرية في السقط ؛ فهي تضم قصائد المدح وما يدعى بالتهتة بأشكالها ، وهي تغطي  
مساحة كبيرة من الديوان ، إلى جانب بعض القصائد في الرثاء ، وقصائد أخرى في غير  
غرض محدد .

ويعنون أبو العلاء قصائده حسب خطة رمزية ، وتشكل رؤيته الفنية في تلك  
القصائد ظاهراً يتلهم به ، وباطناً يرمي إليه ويشكله ويتسق مع الظاهر في مواضع  
ويختلف عنه في أخرى ؛ وهذا ما يدفعني إلى القول بأن ثمة باطنا ؛ لأن القصيدة لا تتسق  
ولا تثرى إلا في ظل ذلك الباطن ؛ فتفاعل رموزها ومكوناتها . فهناك رؤية صلبة تستند  
إليها وحدة القصيدة وتؤسس لها في الوقت ذاته . وهو ما أحاول في هذه السطور أن  
أكشف عنه .

ولكن لماذا تلك الثنائية ؟ حيثلو محتاج إلى إعادة القول عن مفهوم الرمزي ذي  
الوجهين ، الذي لا ينفك أحدهما عن الآخر ، واستراتيجية عمل اللغة الشعرية ونشاطها  
الذي يتشكل في إطار شيء أكبر منهما معاً .

(1) المرجع السابق : ص 109 .

## 2. البنية الرمزية للممدوح / النموذج :

لنتعرض أهم ملامح الممدوح / الرمز في هذه السطور . ولنبدأ بعلّة التوجه إلى المدح ، وهي (حب) الممدوح بل فرط حبه ، فالتوجه في الأصل يقوم على الحب والرغبة في الاتصال أو الاتحاد به . يقول :<sup>(1)</sup>

48- ولولا فرط حبك ما ازدهاني إلى المدح الطريف ولا التلاد  
فرط الحب هو الدافع إلى المدح . كان التغرب والبعاد حباً وسمواً ، وكانت الرحلة حباً وتطهراً ومجتأً عن النور وعودة إلى البدايات ونبشاً في الأعماق .  
يقول :<sup>(2)</sup>

- |                                |  |
|--------------------------------|--|
| 69- علي لأمالك البلاد نصيحة    | يقوم بها ذو حسبة في قيامه              |
| 70- أخص بها من كل حي عميده     | وأصرّفاً مستكبراً عن طغامه             |
| 71- بأن علياً كل من فاز بالغنى | فقير إذا لم يدخر من كلامه              |
| 72- سننت لأرباب القريض امتداحه | كما سن إبراهيم حج مقامه <sup>(3)</sup> |
| 73- فيثني عليه ضيغم بزئيره     | ويثني عليه شادان ببغامه                |

من (علي) ومن الإمام ؟ من الذي استحق فرط الحب والثناء ؟ وما علاقة ذلك بقوله : (مدحت فيه ذاتي) وما علاقة الكلام بالدر ، والطاعة بالعقوق وعميد الحي بالطغام بأهل النطق ؟ ما علاقة ذلك بالإنسان وأشواقه وآماله وآلامه ؟

(1) شروح سقط الزند : 1 / 324 .

(2) المرجع السابق : 2 / 516 .

(3) يقول المتنبي : (معجز أحمد : 1 / 223) .

- نجا امرؤ يابن يحيى كنت بغيته وخاب ركب ركاب لم يؤموكا
- أحييت للشعراء الشعر فامتدحوا جميع من مدحوه بالذي فيكا
- وعلموا الناس منك المجد واقتدروا على دقيق المعاني من معانيكا
- فكن كما شئت يا من لا شبيه له وكيف شئت في خلق يدانيكا

يقول: (1)

- 4- وليس بجاز حق شكرك منعم  
ولو جعل الدنيا قضاء ذمامه  
5- فلا تلزمني من مديحك منطقاً  
يقصر فكري عن بلوغ التزامه

من الكلام وأهل النطق إلى المنطق والفكر ، المثال لا يبلغ ، ولا يستطيع الشاعر أن يوفي كل حقوقه ، ما دلالة التقصير بالالتزام في ظل علاقة الشاعر بالمدوح ؟ ربما كان من ملامح المدوح البارزة علاقته بالفكر والنطق والفهم والكلام والدر وكذلك بالسيف ترجمان المنايا .

يقول: (2)

- 49- شقت البحر من أدب وفهم  
وغرق ففكره الفكر الطموحا  
50- لعبت بسحرنا والشعر سحر  
فتبنا منه توبتنا النصوحا  
51- فلو صح التناسخ كنت موسى  
وكان أبوك إسحاق الذبيحا  
60- ياغيث فهم ذوي الأفهام إن سدرت  
بلى فمراك يشفيها من السدر<sup>(3)</sup>  
26- إذا تفكر أهل الرأي واجتهدوا  
فضل كل هداه غير مفتكر<sup>(4)</sup>  
12- رأيتك واحدا أبرحت عزما  
ومثلك من رأى الرأي النجيح<sup>(5)</sup>

هل ثمة علاقة بين فكرة الحرب والصراع الفكري ؟ هل تأخذ الحرب طابع الصراع الفكري في ظل علاقتها بالدم والخلاص والتطهر ؟ ألا يمتزج النور بالدم والتضحية ؟ ما دلالة التوحد أو التفرد والعزم وما علاقة ذلك بأهل الرأي والهدى والضلال ؟

(1) شروح سقط الزند : : 2 / 475 . يقول المتنبي : (معجز أحمد : 2 / 39) .

- خذ من ثنائي عليك ما أسطيعه لا تلزمني في الشناء الواجبا

(2) شروح سقط الزند : 1 / 275 .

(3) المرجع السابق : 1 / 163 .

(4) المرجع السابق : 1 / 138 .

(5) المرجع السابق : 1 / 248 .

- 19- ويطلب منك ما هو فيك طبع  
60- يعبر سيفه لفظ المنايا
- ومطلوب من اللسان البيان<sup>(1)</sup>  
كم شرح الكلام الترجمان

ما علاقة الطبع بالبيان ؟ وهل البيان هو ما يطلب من المدوح ؟ وهل لذلك علاقة  
بجوده ؟ هل يكون الجود بالبيان والهدى والنور كما كان الطلب ؟ ألا يستحق ذلك  
المدوح التمجيد ؟ أليس الهناء لنا جميعاً ؟ يقول :<sup>(2)</sup>

4- هنيئنا لأهل العصر براء محمد وإن كان منهم جاهل وعليم

ويتهل فيقول :<sup>(3)</sup>

- 62- عش فداء لوجهك القمران  
55- فكن في الملك يا خير البرايا  
27- عشت حتى يعود أمس لعلمي  
28- فادعاء الملوك غيرك إدرا  
12- درة من ذراك تسكن بحرا  
13- أنت شمس الضحى فمك يفيد الص
- فهما في سناه مستغران  
سليمانا وكن في العمر نوحا<sup>(4)</sup>  
أنه لا يعود بعد المرور<sup>(5)</sup>  
ك المعالي دعوى شقاق وزور  
وكذا الدر ساكن في البحور<sup>(6)</sup>  
بح ما فيه من ضياء ونور

الرحلة إلى المدوح شاقة وعسيرة ، والثور على الدر بعيد المثال ودونه لجة وأهوال .  
يحتاج الثور على الدر إلى مغامرة الغوص في البحر والنفس والمدوح جميعاً ، كما  
كانت الرحلة مغامرة لدخول الفلاة والوصول إلى المدوح ، الرحلة ضرب من المغامرة  
والبحث عن الخلاص والتطهر .. بحث عن الدر في أعماق البحر ، ومكابدة الأهوال في

(1) شروح سقط الزند: 1 / 185 .

(2) المرجع السابق : 2 / 664 .

(3) المرجع السابق: 1 / 467 .

(4) المرجع السابق : 1 / 280 .

(5) المرجع السابق : 1 / 236 .

(6) المرجع السابق : 1 / 229 .

سبيل النموذج ، النموذج بدر في الظلام وهو شمس النهار ، ويكثر ارتباطه بالشمس .  
يقول :

- 13- وقد حلفت أن تسأل الشمس حاجة  
وإن سألتك اليسر برت يمينها<sup>(1)</sup>  
52- ويوشع رد يوحا بعض يوم  
وأنت متى سفرت رددت يوحا<sup>(2)</sup>

فالقصيدا تبحث عن إسفار طلعتة وإشراق شمسه . يقول :

- 5- زفت إلى دارك شمس الضحى  
وحولها من شمع أنجم<sup>(3)</sup>  
6- مثل شيات في قميص الدجى  
زين يهن الفرس الأدهم  
7- تخفى ولا تظهر إلا إذا  
منزلك الأعظم  
8- كأنها سر الإله الذي  
عندك دون الناس يستكتم

علاقة الممدوح بالشمس سر . وكذلك علاقة الدر بالبحر ، وغاية الرحلة بالمفازة ،  
والخفاء بالظهور ، لا شيء من دون الصراع ومكابدة مشقة الوعي . ثمة رابطة لا انفصام  
لها بين الوعي والنور والدم ، كذلك المكارم والمعاني من الملامح الأساسية للممدوح ،  
فهو مثال الكمال ويمينها ولسانها ، وعليه لكل مكرمة ضمان . يقول :<sup>(4)</sup>

- 66- ستفديك المكارم راضيات  
وما منها بفديتك امتنان  
67- إذا صالت فأنت لها يمين  
وإن نطقت فأنت لها لسان

يكشف الممدوح عن رغبة عميقة في السمو والكمال ، والانتصار على عقبات كثيرة  
وهو كذلك في أحد وجوهه ربما عبر عن مجاهدة واتقاء لأشياء كثيرة، لعل الممدوح نفسه

(1) شروح سقط الزند : 2 / 897 .

(2) المرجع السابق : 1 / 278 .

(3) المرجع السابق : 2 / 846 .

(4) المرجع السابق : 1 / 223 .

يشكل ركناً أساسياً في تلك المجاهدة بالريب في حقيقة الموقف الإنساني ، من خلال الجدل بين الرغبة والرهب الخفي أو الباطني ، بين الإثبات والنفي ، ومن خلال القلق والتوتر بين الاحتمال والعودة . ومن خلال إشراق الوعي ومشقته .

المدوح مناط الحديث عن أعماق غائرة ، تلتبس فيها الأحلام والآمال بالألام والفقْد بالوجد ، والحضور بالغياب ، النموذج قلق عميق ، وثورة عارمة تجتاح عقل الشاعر . يجسد النموذج حركة الروح أشرق وعيها ؛ فرأت الحقيقة والوجود الإنسانيين مفعمين بالتناقض والجدل . والقصيدة تبحث عن الغياب إذ تتوجه إلى النموذج وتشكله ، فرمما كانت الرحلة إلى المدوح محاولة لسبر أغوار ذلك الغياب، فقسوة الرحلة ومشقتها هي مشقة الوعي بالغاية . الرحلة شوق ومجاهدة ، رغبة ورهبة وحذر واتقاء . يقول :<sup>(1)</sup>

- |                               |                           |
|-------------------------------|---------------------------|
| 18- ظل للناس يوم عقدك هذا الـ | أمر عيد سموه عيد السرور   |
| 19- إن يكن عيدهم بغير هلال    | فالهلال المضيء وجه الأمير |
| 20- راقهم منظراً وهابوه خوفاً | فهو ملء العيون ملء الصدور |

ويقول :

- |                                |   |
|--------------------------------|---|
| 61- تهاب الأعادي بأسه وهو ساكن | كما هيب مس الجمر قبل اضطرامه <sup>(2)</sup> |
| 55- كلا كفيك في سلم وحرب       | يكون الخوف منها والأمان <sup>(3)</sup>      |

ويعد الجود من القيم الأساسية التي تشكل ركناً بارزاً في بنية المدوح / النموذج فهو - من قديم - بحر ، وينطوي البحر كذلك على الأوجه المتناقضة ، ففيه الدر والمرجان ، فهو خصب ، ولكنه كذلك الخطر . البحر عطاء بيد أن العطاء ذو طبيعة خاصة فالبحر قوة مخيفة ولا ينفصل العطاء عما يصحبه من الخطر والحذر ، ثمة ريب في العطاء من هذا الوجه .

(1) شروح سقط الزند: 1 / 231 .

(2) المرجع السابق : 2 / 511 .

(3) المرجع السابق : 1 / 216 .

يقول: (1)

6- وللحسن الحسنى فإن جاد غيره  
9- وقد يجتدي فضل الغمام وإنما  
11- فيا أحلم السادات من غير ذلة  
المدوح بعطائه إثراء للحياة ، وبعث لها ، بيد أنه كذلك - وتلك لحظات الوعي -  
ليس عطاءً خالصاً . يقول : (2)

63- ويعدم عنده في الجود مظل  
ومعدوم مع العتق الحران  
بين الجود والمظل جدل . بين ما يرجى وما يتقى . بين الجود والذلة ، بين الجود  
والثناء :

5- ولن يحوى الثناء بغير جود  
36- لا يكذب المقسم في قوله  
ولكنه كذلك لا يفتأ يتساءل : (5)

1- أعن وخذ القلاص كشفت حالا  
2- ودرا خللت أنجمه عليه  
3- وقلت الشمس بالبيداء تبر  
4- وفي ذوب اللجين طمعت لما  
5- رماك الله من نوق بروق  
6- فقد أكثرت رحلتنا وكانت  
7- تذكرك الثوية من ثدى  
ومن عند الظلام طلبت مالا  
فهلا خلتهن به ذبالا  
ومثلك من تخيل ثم خالا  
رأيت سرايها يغشى الرمالا  
من السنوات تثكلك الإفالا  
صغار الشهب أسرعها انتقالا  
ضلال ما أردت به ضلالا

(1) شروح سقط الزند : 1 / 352 .

(2) المرجع السابق : 1 / 221 .

(3) المرجع السابق : 2 / 813 .

(4) المرجع السابق : 2 / 865 .

(5) المرجع السابق : 1 / 25 .

ما علاقة الدر والتبر والشمس بالبيداء والسراب ؟ وما دلالة (الكشف) و(الظلام) و(ضلال ما أردت به ضلالاً) ؟! ما علاقة الضلال بالرحلة ؟  
يقول: (1)

- 24- القاتل المحل إذ تبدو السماء لنا  
25- وقاسم الجود في عال ومنخفض  
28- يبين بالبشر عن إحسان مصطنع  
29- فلا يغرنك بشر من سواه بدا  
كأنها من نجيع الجذب في أزر  
كقسمة الغيث بين النجم والشجر  
كالسيف دل على التأثير بالأثر  
ولو أنار فكم نور بلا ثمر (2)

النجيع مكون أساسي من مكونات مغامرة الوعي أو مغامرة الوجود . (كأنها من نجيع الجذب في أزر) كذلك النور . فهل تبحث القصيدة عن نور ذي ثمر . ويس تجنى منه الثمار ؟  
يقول: (3)

- 8- إذا ما طريد العصم وافى حضيضه  
9- منازل لو رد الحمام بعزة  
10- غمامان مبيضان مند براهما  
11- كأنك حوض المزن طاطاً نفسه  
12- كأنك در البحر أصبح طافيا  
13- كأنك ركن البيت أعطى قدرة  
14- أفدت جزيل المال لما استفدته  
15- ولو نال ذو القرنين ما نلت من غنى  
تبوأ فيه واثقا باعتصامه  
لما ريع من يحتلها من حمامه  
لنا الله لم نحفل بسود غمامه  
إلى ورده حتى ارتوى من سجامه  
على الماء فاعتام الوري من تؤامه  
فسار إلى زواره لاستلامه  
وحكمت فيه الدهر قبل احتكامه  
بنى السد من ذوب النضار وسامه

(1) شروح سقط الزند : 1 / 136 .

(2) يقول التتبي : (معجز أحمد : 1 / 237)

- ما ذا البهاء ولا ذا النور من بشر ولا السماح الذي فيه سماح يد

(3) شروح سقط الزند : 2 / 477 .

- 16- وهل يدخر الضرغام قوتا ليومه إذا ادخر النمل الطعام لعامه  
 17- وكم بلد فارقته متلفها عليك غداة البين قلب همامه

(كأنك) هي باب الدخول (كأنك حوض المزن طأطأ نفسه .. حتى..) و(كأنك در البحر أصبح طافيا..فاعتام..) و(كأنك ركن البيت أعطى قدرة .. فسار..) لم يعد الحوض عزيزا على ورده ، بل طأطأ نفسه وارتوى الورد ! لم يصبح الدر في الأعماق بل أصبح طافياً في متناول اليد ! كذلك تحول ركن البيت وأعطى قدرة فأصبح يسير إلى زواره بدلاً من أن يسيروا إليه ! ثمة امتناع ، على الرغم من ذلك الانسياب البادي ، وذلك اليسر وتلك السهولة في الحصول اليسير على الماء والدر ، فماذا يعني تغييب الجهد الإنساني في الحصول على الماء ومكابدة الأهوال مجئاً عن الدر ؟ ماذا يعني تغييب الوعي ومشقته ؟ وما علاقة ذلك اليسر بـ (طريد العصم) و(الحضيض) و(الاعتصام) ورد (الحمام بعزة) ؟! مرة أخرى ما دلالة (لو) في (لو رد الحمام بعزة) ؟ ما دلالة الرد والاتقاء (بعزة) في علاقتها (بالحمام) والامتناع في (لو) و(حكمت) بقول الخوارزمي : (مدار تركيب الحاء والكاف والميم على المنع) ؟

لماذا كان البدد وجهاً أساسياً من وجوه الجود ؟! وما علاقته بالدهر ؟ وما دلالة دخول ذي القرنين في هذا السياق ؟ ما الذي فقد واستدعى (لو) ؟ ما الذي لو وجد اعتصم الإنسان وبنى السد ؟! ما الذي لا يقوى الإنسان على الاحتماء منه أو الخيلولة دونه ؟!

يقول: (1)

- |                          |                        |
|--------------------------|------------------------|
| 1- سالم أعدائك مستسلم    | والعيش موت لهم مرغم    |
| 2- بقطرة غرق أعاديك لا   | ينقص منها بحرك المفعم  |
| 3- فليس عن نصرك متأخر    | ولا إلى حربك مستقدم    |
| 4- ليهنك المجد الذي بيته | فوق سراة النجم لا يهدم |

(1) شروح سقط الزند : 2 / 844 .

لماذا الاستسلام ؟ وكيف أصبح العيش موتاً مرغماً ؟ ما هذا النفي القاسي (فليس .. ولا ..) ؟ لماذا التغيب التام للأعداء ؟ ثمة نصر ولا حرب ، فماذا هنالك ؟ لماذا أجهضت الحرب وتلاشى الصراع ؟ هل للدلالة تلاشي العدو علاقة بمكانة النموذج ؟ هل النموذج بمعدة عن ذلك الجمود وتلاشي الوعي والحرب ؟ ما وجه التهيئة بالمجد ؟ يقول في القصيدة نفسها :

29- فقل لمن يفتال ترب العلا      الترب خير لك لو تعلم

30- ما أنت في عدة من يتقى      بل أنت في عدة من يرحم

31- والقوم كالأنعام إن عوتبوا      تسمع ما قيل ولا تفهم

ما علاقة القوم بالأعداء ؟ وما علاقة (ترب العلا) بـ (الترب) ؟ ألا يعد وجود النموذج مرتبطاً - بوجه ما - بوجود الأعداء ؟ ليس ثمة من يتقيه النموذج . فهل يعد ذلك تجميداً لفروسيته ؟ هل بين النموذج والقوم علاقة ما ؟ هل يستمد النموذج وجوده وقوته من القوم ؟!

يقول: (1)

65- علوتم فتواضعتن على ثقة      لما تواضع أقوام على غرر

66- والحمد والكبر ضدان اتفاهما      مثل اتفاق فناء السن والكبر

67- يجنى تزايد هذا من تناقص ذا      والليل إن طال غال اليوم بالقصر

68- خف الوري وأقرتكم حلومكم      والجمر يعدم فيه خفة الشر

في الأبيات حركة مواراة قلقة بين الأضداد ، الصراع بين العلو والتواضع ، الحمد والكبر ، الزيادة والنقصان . حركة تكشف عن حلوم كالجمر اضطراما بلا شرر . يقول: (2)

8- من قال إن النيرات عوامل      فبضد ذلك في علاك يقول

9- يعملن فيما دونهن بزعمه      ولهن دونك مطلع وأفول

(1) شروح سقط الزند : 1 / 167 .

(2) شروح سقط الزند: 2 / 871 .

علا المدوح لا تعمل فيه النيرات العوامل ، فلا يخضع لتأثيرها ، بل لمن دونه مطلع وأقول . النموذج المدوح لا يجارى ولا يتقى ، يسود ولا يساد ، ويؤثر ودونه تأثير الكواكب ، فليس لها عليه من سيادة . يقول :<sup>(1)</sup>

43- ركبت العاصفات فما تجارى وسدت العالمين فما تساد  
المدوح / النموذج في أكثر قصائد السقط فارس مغوار وفروسيته جانب مهم في  
الرؤية العلائية . يقول :<sup>(2)</sup>

6- المتقي بالخيل كل عزيمة والمستبيح بهن كل عرمم  
16- يجمعن أنفسهن كي يبلغن ما يهوى فمجفهن مثل الأهضم  
11- مكلف خيله قنص الأعادي وجاعل غابه الأسل الطوالا<sup>(3)</sup>  
17- ترى أعطافها ترمي حميما كأجنحة البزاة رمت نسالاً

النموذج ذو علاقة وطيدة بكل ما يتصل به من فرس وسيف ورمح ودرع.. وكلها رموز تعبر عن المشكل وتبينه . يقول :<sup>(4)</sup>

13- إلام تكلف البيد المطايا بعزم لا يقُرُّ له قرار  
14- وخيلا لو جرت والريح شأوا ظننا الريح أوتقها إسار  
15- غدت ولها حجول من لجين وراحت وهي من علق نضار  
ربما كان العزم هو الجمانع بين كثير من جوانب المشكل ، لا سيما فروسيته وما يتعلق بها من فرس وسيف ورمح ..، المدوح النموذج يحارب الليل والظلام ؛ ومن ثم كانت درعه من النجوم . يقول :<sup>(5)</sup>

(1) شروح سقط الزند: 1 / 320 .

(2) المرجع السابق : 1 / 330 .

(3) المرجع السابق : 1 / 42 .

(4) المرجع السابق : 2 / 817 .

(5) المرجع السابق : 1 / 212 .

49- كأن الليل حاربها فقيه هلال مثل ما انعطف السنان

50- ومن أم النجوم عليه درع يحاذر أن يمزقها الطعان

فهو ذو درع تحميه وسيف ييلفه ما يرجوه ورماح ونبال وقسي . يقول (1)

29- وخلة الضرب لا تبقي له خلا وحلة الحرب ذات السرد والحلق

الحرب هي أساس وجود الفارس / المشكل ، وفروسيته ؛ ولذا كان هذا المحور من أهم المحاور الشائعة في السقط ، فلوحة الحرب من اللوحات التي يوليها أبو العلاء عنايته .

إن كل ما سبق من صفات المدوح يجعل منه نموذجاً ، يوهله لصنع المجد . يقول : (2)

22- ويكسى باسمه عن كل مجد وكل اسم كنيته فلان

57- قالت عداتك ليس المجد مكتسبا مقالة الهجن ليس السبق بالحضر (3)

58- رأوك بالعين فاستغوتهم ظنن ولم يروك بفكر صادق الخبر

59- والنجم تستصفر الأبصار صورته والذنب للطرف لا للنجم في الصغر

يؤكد الشاعر أن المجد مكتسب وليس قدراً يلح على ذلك في أكثر من موضع .

26- فيابن محمد والمجد رزق بقدرك سدت لا قدر آتيا (4)

فالمجد همة وعزم إنسانيين ؛ فقد كانت الخيل (تكاد .. تغني عن الأقدار صونا

وابتذالا) .

ما زال النموذج يشكل حلما ورغبة في العلو والتجاوز . يقول :

1- إليك تناهى كل فخرٍ وسودد فأبل الليلي والأنام وجدود (5)

2- لجدك كان المجد ثم حويته ولائيك يُبني منه أشرف مقعد

(1) شروح سقط الزند : 2 / 686 .

(2) المرجع السابق : 1 / 220 .

(3) المرجع السابق : 1 / 161 .

(4) المرجع السابق : 1 / 259 .

(5) المرجع السابق : 1 / 350 .

- وما هن غير الأمس واليوم والغد  
 يغيب ويأتي بالضياء المجدد  
 فجملتها من نير متردد  
 فذلك فعل ليس بالمتعمد  
 يجوب إليه محتداً بعد محتد  
 وأقتر والقناعة لي عتاد<sup>(1)</sup>  
 بحاجاتي ولم تجف الجياد  
 يعيش لنا الأمير ولا نزاد  
 كأن النيرات له عماد  
 أقرت أن حلتها حداد  
 ثمانية به السبع الشداد  
 ترائك فلتشرف بذاك وتزدد<sup>(2)</sup>  
 عبيدك واستشهد إلهك يشهد  
 ولو أنه في قلب صماء جلمد
- 3- ثلاثة أيام هي الدهر كله  
 4- وما البدر إلا واحد غير أنه  
 5- فلا تحسب الأقمار خلق كثيرة  
 6- وللحسن الحسنى فإن جاد غيره  
 7- له الجوهر الساري يؤمم شخصه  
 8- أأخمل والنباهة في لفظ  
 9- وألقى الموت لم تخذ المطايا  
 10- ولو قيل أسألوا شرفاً لقلنا  
 14- بنى من جوهر العلياء بيتا  
 15- إذا شمس الضحى نظرت إليه  
 16- فلولا الله قال الناس أضحت  
 49- وقد علمت هذي البسيطة أنها  
 50- وإن شئت فازعم أن فوق ظهرها  
 51- وذكرك يذكي الشوق في كل خاطر

ربما لا يفصل مجد النموذج / المشكل عن حركة الزمان كما لا يفصل عن (الأمير)  
 الغاية ، والتعلق بثامنة السبع الشداد . الأرض واحدة وأنت الأوحـد ! ما دلالة (الذكر)  
 و(الشوق) بـجلم الإنسان المستحيل ؟ وما علاقة الزعم بالمشيئة بالعبيد بالإله بهذا السياق ؟!  
 كان المشكل - إذن - تجسيداً لرغبات دفينه ، ربما كانت الرحلة رغبة في التحرر أو  
 التطهر منها .

42- أعاد مجدك عبد الله خالقه من أعين الشهب لا من أعين البشر<sup>(3)</sup>

(1) شروح سقط الزند: 1 / 287 .

(2) المرجع السابق : 1 / 387 .

(3) المرجع السابق : 1 / 150 .

عنه وتلحق ما تهوى من الصور  
فحزتها وهي بين الناب والظفر

43- فالعين يسلم منها ما رأت فنبت  
44- وكم فريسة ضرغام ظفرت بها

مجد عبد الله - إذن - ليس مما تهوى أعين البشر ، وإنما هو مما تراه فتنبو عنه . ومن ثم يعيد مجده من أعين الشهب والكواكب . ألا يتحاور ذلك (المشكل) مع (ساهر البرق) ذلك السحاب يراد منه أن يسقي الشجر ويوقظه بالاخضرار والإيراق<sup>(1)</sup> - بعبارة التبريزي - فيحييه بعد موته ، فهو من بني مطر ومن جنس المواطر . فإن بجمل ذلك السحاب على (الأحياء كلهم) فليست (حيا من بني مطر) . فإليه ظمأ وشوق ، فقد بات الملجأ والخلص . ولذا فإن الشاعر يشناق إليه<sup>(2)</sup> !

لما تواضع أقوام على غرر  
مثل اتفاق فتاء السن والكبر  
والليل إن طال غال اليوم بالقصر  
والجمر يعدم فيه خفة الشرر  
في النوم لم يمس من خطب على خطر  
كالغمد يبليه صون الصارم الذكر  
إلى قدومك أهل النفع والضرر  
يراقبون إياب العيد من سفر  
وأبت لا تنقل الأضحى إلى صفر  
فما يزيد على أيامنا الأخر  
بالآل والحال والعلياء والعمر

65- علوتم فتواضعتم على ثقة  
66- والحمد والكبر ضدان اتفاهما  
67- يجنى تزايد هذا من تناقص ذا  
68- خف الوري وأقرتكم حلومكم  
69- وأنت من لو رأى الإنسان طلعتنه  
70- وعبد غيرك مضرور بخدمته  
71- لولا قدومك قبل النحر أخره  
72- سافرت عنا فظل الناس كلهم  
73- لو غبت شهرك موصولا بتابعه  
74- فاسعد بمجد ويوم إذ سلمت لنا  
75- ولا تنزل لك أزمان ممتعة

(1) شروح سقط الزند : 1 / 115 ، وقال في مقدمة السقط : "ومد العمر فكأنما سنوه السم ، ويعدم

عنده الثمر" (الشروح : 1 / 5) .

(2) المرجع السابق : 1 / 167 .

### 3. رمزية الأسماء

ومن رمزية المديح إلى رمزية الأسماء ، أقصد أسماء المدوحين مثل : (علي) و(سعيد) و(أبو الفضائل) و(أبو الرضا) و(الشريف) ، والمهم في هذا الموضوع هو أن ما للأسماء من رمزية لا يتكون بمعزل عن القصيدة وحركتها الداخلية ، فهي أسماء موظفة ، وأبو العلاء - وغيره - عندما يمدح (أميراً) فالأمير ليس له من القصيدة غير اسمه ، الذي ربما يحذف هو الآخر إن لم يتحول إلى إشارة فنية تندمج في البناء الرمزي للمدح وتثريه ، ولعل ذلك هو أحد أسباب حذف أسماء بعض مدحيه أو تجريدهم (في خطبة السقط) مما جاء في المدح من صفات ، وإلحاقه بالذات الإلهية ، الا يدعوننا ذلك إلى مراجعة موقف أبي العلاء - والشعراء عموماً - من شعر المدح في ضوء تلك الإشارة الذكية التي تلحق الصفات بالملق تارةً وبالإنسان تارةً أخرى في قوله (مدحت فيه ذاتي) !؟

كذلك فإنه عندما يوظف القصيدة بموقف ما فإنه يجدد سياقاً متسقاً مع الظاهر والباطن معاً ، إذ يكشف عن علاقات رمزية عميقة ومتناسكة ، فمثلاً جاء في عدة قصائد أن (المناسبة) أو (أسباب) كتابة القصيدة هي التهنئة بعرس أو بعروس ، والأمر بعد ذلك ذو باطن رمزي تتكشف عنه القصيدة ، فالهيكل الخارجي لعلاقات الأطراف داخل القصيدة لا يعدو أن يكون حيلة فنية مقصودة ، وتقليداً فنياً متبعاً ظاهراً<sup>(1)</sup> .

فالأمير المدوح يتشكل بوصفه نموذجاً ومثالاً متحرراً من الواقع وخارجاً عن الزمان والمكان ، وهو فارس يمتلك مقومات الحياة والموت معاً ، فهو سعيد وعلي وشريف وذو فضائل ، وهو علوي السجايا ذو مجد وشرف وطهر وتقى .. كريم حلیم شجاع قادر .. وهو بذلك قادر على إلحاق الهزيمة والخوف والرعب .. بقلوب أعدائه ، بل قادر على موتهم .

يكاد يتحد المدوح / البطل بالملق ، فيبده الحياة والموت . المدوح هو شمس

(1) راجع على سبيل المثال القصائد : (36 - 64 - 65 - 66 - 67 - 108 - 106 - 110) .

الضحى ، وهو الوعي الغائب والنور المنتظر ، وربما كان المثال الكامل أو الإنسان الأعلى (المخلوق على هيئة خالقه) أو الحلم ، المدوح هو حلم النهار للخروج من ليل الحياة والتغلب على صعوباتها . لماذا العلو والشرف والسعادة..؟! وما دلالة التشبث بهذه الركائز التي لا تتحقق إلا بالحرب ولا تكون الحياة الحقة بدونها ؟ لماذا نكتفي بالنظر إلى بعض محمولات القصيدة دون غيرها ؟ لماذا لا يكون جدل وحوار بين الفقد والوجد ، بين الواقع والخيال ؟ لماذا نكون غير أوفياء للحياة - إذ لا نرى القصيدة من كل جوانبها - وندعي عدم وفاء أبي العلاء لها؟

كان أبو العلاء وفياً للحياة ، ونازها ، كان أميناً في موقفه من الحقيقة شأن كل فنان ، لم ير الحياة جنة ، ولم يرها ناراً ، وإنما رآها جنة لا توجد من دون اصطلاء نار الحرب والصراع .. رآها عزيزة والطريق إليها وعرة موحشة ؛ من ثم كانت الحياة بحاجة دائماً إلى من يشبون نارها ويقبضون على جمرتها !

يشكل المدوح الفقد والوجد معاً ، وربما شكل الآخر الذي تحاوره الرؤية. المدوح - إذن - هو ذلك (المشكل) أو (المعجز) ، هو مجمع المتناقضات شأن كل رمز بل شأن كل أسطورة تحاول أن تعطي للحياة معنى ، كان ممدوح أبي العلاء يجسد رغبات .. ويرسم طرقاً .. ما فتى الإنسان يبحث عنها ، إنه المشكل الذي حرص الإنسان على سبر أغواره بطرح الأسئلة وسرد الحكايات والأساطير . كان هذا كله محاولة لكشف الحجب عن شيء ما غامض . فهل استطاع أبو العلاء أن يميظ اللثام ويكشف القناع عن ممدوحه الآخر / الأنا ؟

تستدعي فروسية المدوح وشجاعته وممارسته الدائمة للحرب - أن يكون ذا خيول وسيوف ورماح ونبال .. فهو كمي شامي السلاح من كماء ، خيله تبلغه كل غور وتجبو كل فلاة ، وترجع من كل غور مخضبة السنابك والشكائم بدم الأعداء. وسيفه مكمّن المنايا ، وفيه الماء والنار الحياة والموت ، ويعشق الرقاب. والدرع ملبسه لا تبلى إلا (حتف أنفوس) ، أما درع أقرانه فتبلى من شكه ؛ فهو (مشكل فرسان الوغى كل نثرة) أو تلقى من

خور . الممدوح - إذن - فارس الخيل، وملك بخالقه يعان ، وذو مجد مؤثّل ، وهو فتنة - أكان الشاعر يتبنى هذه الفكرة أم يحذر منها ؟ - والخيل والسيف والرمح .. ذات علاقة وطيدة به . والرحلة إلى ذلك الممدوح شاقّة وهي رحلة الشاعر وناقته . فمن ذلك الممدوح - إذن - ؟ وأي شيء يجسده تصويره على هذا النحو الأسطوري الفريد ؟

الممدوح هو الموت ومن ثم الحياة !<sup>(1)</sup> الرهب والرغب ، السعد والنحس ، والقوة والكرم ، والمجد والشرف ، وفقدها ، الممدوح بذلك مشكل ، ولما كان بيده الحياة كانت الرحلة إليه رحلة إلى الحياة أو بجنأ عنها . في المشكل تحرر من قيود كثيرة ، من جهة ، وانفتاح على عالم أكثر وعياً ونوراً ، من جهة أخرى ؛ ولذا فالمشكل هو حلم النهار ، ذلك الحلم العزيز على الإنسان .

ويعطي حديث المدح - ذلك القناع - عدة كلمات أساسية ، تدور كلها في فلك الحرب وسياقها ، الفارس والفرس والسيف والرمح والدرع .. ومن ثم فإن فكرة الحرب تمثل سياقاً أو إطاراً عاماً لكل ما يتصل بهذه الكلمات التي تتمركز حول الفارس الممدوح . وفكرة الحرب والصراع والمجاهدة عميقة الصلة بحياة الإنسان وعقله وروحه .. المشكل وثيق الصلة بالشاعر والقصيدة ، فالقصيدة حرب ومجاهدة ، ومواجهة مع ذلك المجهول ، وما ينسب إلا إليه سؤدها !

وتعد قيم القوة والجدود والمجد والشرف مناط الحديث عن الفقد أو الغياب ، الذي تموج به الرؤية ، من خلال ذلك الحضور الطاعني لها . فالنفي يكتنف الإثبات . كان اللجوء إلى المشكل تأملاً في الحياة وما يكتنفها من فقد وعجز .. وما تحتاج إليه من قوة وقيم تتشكل في لوحة الممدوح / المشكل ، كان وعياً بالحياة وبنجأ عن مشقة الوعي بحياة أكثر خصوبة وإشراقاً . وهو ينطوي على احتجاج أساسي على حياة مظلمة جائرة تشكل الوجه الآخر الغائب لذلك الوجه المشرق في قصائد المدح ، فتمة جدل وحوار بين

(1) راجع : د. مصطفى ناصف: قراءة ثانية لشعرنا القديم ، ص 183

الحضور والغياب ، ولا يفهم الحضور بمعزل عن غيابه الذي يحوم حوله . فالقوة هنا جهد لا يتوقف عن الصراع في محاولة للخلاص من الضعف والتغلب على الفقد الأليم<sup>(1)</sup> .

ولتأمل ذلك في خلال الشعر ذاته متخذين من المدح محوراً أساسياً لكل ما يتعلق به ، فهو مركز المدح ويؤثره ، وكل شيء بعد ذلك يدور في فلكه، كل ما يتمتع به من مكانة وصفات وقيم ، وكل ما يملك من خيول وسيوف ورماح و.. كذلك الرحلة فما كانت إلا إليه .

#### 4. المدح المشكل :

سبقت الإشارة إلى أن المدح مشكل أو معجز ، يعلو ويتصاعد ولا يتحدد ، فلا تكاد ترتبط الرؤية الرمزية بهذا أو ذاك من الناس ، وإنما هي بحث عن شيء غامض ، تتأمله وتقلبه على وجوهه المختلفة، وتشكله من خلال ذلك البحث الشاق، والتساؤل المضي . وأهم ما يسترعي الانتباه في ذلك الحديث هو لقب (الأمير) الذي ينطوي على الرفعة والسمو والسلطة والإرادة ، الأمير مرهوب الجانب وذو سطوة وكرم ومجد .. وييده مقاليد الأمور . ولا تفهم أهمية الرفعة والسلطة والإرادة .. بمعزل عن الضعة والهوان والقهر والانسحاق وعدم السيطرة..

إن من أوضح صفات المدح أنه يعلو على الواقع أو يتجاوزه في كل صفاته وأفعاله ويكاد يتحد بالمطلق إذ يتجه نحو السماء في أكثر أحواله .

يقول أبو العلاء<sup>(2)</sup> :

38- ولولا قولك الخلاق ربي      لكان لنا بطاعتك افتتان

59- فإن تعاون الأملاك جهل      على ملك بخالقه يعان

(1) راجع : جيمرد براند : العالم والتاريخ والأسطورة ، ص 114 .

(2) شروح سقط الزند : 1 / 199 ، 218 .

المدوح بداية ليس هو المطلق وإن انجبه نحوه ، فهو ما يزال دون المطلق المتعالي . ولكن المهم أنه فتنة ومن الجهل أن يعادى ، فضلاً عن أنه لا طاقة لأحد بمعاداته . يقول :<sup>(1)</sup>

21- أسهب في وصفه علاك لنا حتى خشينا النفوس تعبيدها

ما زال المدوح علياً ، يفتن بجلاله النفوس ، وينافس في العبادة ! يقول في القصيدة نفسها :

- |                               |                         |
|-------------------------------|-------------------------|
| 1- تثني عليك البلاد أنك لا    | تأخذ من رفدها وترفدها   |
| 2- من ارتعت خيله الرياض بها   | وكان حوض الصفاء موردها  |
| 3- ففي نبات الرعوس تسرحها     | أنت وماء الجسم توردها   |
| 4- خيلك طول الزمان قائلة      | أمالدا غاية فيقصدها     |
| 5- كم بمكر الطعان تجسها       | وكم وراء العدو تطردها   |
| 6- أعينها لم تزل حوافرها      | تكحلها والغبار إثمدها   |
| 7- إن لها أسوة إذا جزعت       | في بيضك الخاليات أغمدها |
| 8- لا رقدت مقلة الجبان ولا    | متتها بالكرى مسهدها     |
| 9- وإنفس تبغي الحياة جاهدة    | وفي يمين المليك مقودها  |
| 10- فلا اقتح أم الشجاع مهلكها | ولا توقي الجبان مخلدها  |
| 11- لكل نفس من الردى سبب      | لا يومها بعده ولا غدها  |
| 12- قل لعدو الأمير يا غرض الـ | دهر ومن حتف نفسه ددها   |
| 13- هذا هو الموت كيف تغلبه    | وفضله الشمس كيف تجردها  |

ثمة علاقة جدل قوية بين الأمير والدهر والموت والحياة ، بين هذه الكلمات تقاطع وتداخل وتعاون يؤكد الفتنة المرهوبة . كذلك هناك علاقات جد معقدة ، بين النفس والحياة واللهم والموت والدهر ، تشكل مفهوم الحياة المش في مقابل الموت الذي لا قبل لأحده ، ولكنها وراء هذا وذاك تسعى لتكوين مفهوم للحياة قوية .

(1) شروح سقط الزند : 2 / 834 .

ما علاقة قوله : (والنفس تبغي الحياة جاهدة) بقوله : (لكل نفس من الردى سبب) وقوله : (ومن حتف نفسه ددها) وقوله : (هذا هو الموت ..) ؟ الحياة بغية النفس ورغبتها ، ولا مفر من الردى (لا يومها بعده ولا غدها) فمتى يكون يومها - إذن - ؟ وما علاقة ذلك بالافتحام والتوقى أو الهلاك والخلد ؟ إذا كان افتحام الشجاع لا يهلك النفس ، وتوقى الجبان لا يخلدها فهل غير الشجاعة والافتحام خيار ؟<sup>(1)</sup> هذه هي الحياة وهذا هو يوم النفس ، أما الموت فهو معاداة الأمير واختيار الجبن الذي لا يقى . ما علاقة الردى بالحتف والموت والدد ؟ ربما كانت القصيدة مشغولة بالموت والدهر وحنمية المصير ، ولكنها كذلك مهمومة بموت آخر من ملامحه (الدد) والغفلة عن العدو . يقول :<sup>(2)</sup>

- ومضظنن عليك وليس يجدي ولا يعدي على الشمس اضظغان

هل ثمة علاقة بين الدد وجحود الشمس ؟ أليس حتف النفس هو جحودها الشمس كما هو ددها ؟ ثمة سؤال ينشأ ويحوم حول علاقة الجدل بين السؤالين المتوازيين: كيف تغلبه ؟ كيف تمجدها ؟ إذا كان الإنسان لا يستطيع أن يغلب الموت ولا حيلة له معه فلم ييجد الشمس ؟ ما علاقة جحود الشمس بمعاداة الأمير ؟ ما الذي بَنَّت حباله وتسعى القصيدة إلى وصلها ؟! وما تلك الشمس التي جحدت ، وما علاقتها بالنفس الإنسانية والحياة والموت والفضل ؟ ما علاقة قوله : (أما لذا غاية فيقصدها) بالصاحب والإخلاص والولاء في (العنوان) ؟ ولماذا الإلحاح على مفاهيم الصاحب والعدو والشجاعة والجبن والحياة والموت والحرب والعروس ؟ ما هذا التداخل أو التماهي بين الأطراف :

(قاضية حقه لديك وما ينسب إلا إليك سوددها)؟

لماذا كان المدوح مخدومه وصاحبه وما دلالة ذلك ؟ جاء في ديباجة القصيدة: "كان أبو عبد الله السقاء الكاتب سأله أن يعمل قصيدة إلى صاحبه - أو مخدومه - يصف

(1) يقول المتنبى : (معجز أحمد : 1 / 309)

وكيف يبيت مضطجعاً جباناً فرشتَ لجنبه شوك القناد

(2) شروح سقط الزند : 1 / 187 .

له ما شاهده فيه من الإخلاص والولاء<sup>(1)</sup> ، فما علاقة القصيدة بذلك؟ ولتأمل  
(مخدومه) ، قال :<sup>(2)</sup>

- وعبد غيرك مضرور بخدمته  
- ومن يك ذا خليل غير سيف  
كالغمد يبلية صون الصارم الذكر  
يصادف في مودته اختلالا<sup>(3)</sup>  
- سترجع عنك وهي أعز إبل  
إذا إبل أضربها امتهان<sup>(4)</sup>

ما دلالة الرجوع وما علاقته بالرحلة وما ذلك التوتر بين العزة والامتهان في (وهي  
أعز إبل) و(أضربها امتهان) ؟ ما هدف الرحلة - إذن - وما الذي تدفعه وتقيه أو  
تقاسيه وتسمى إلى الخلاص منه ؟ لماذا العزة والامتهان ؟ يقول :<sup>(5)</sup>

1- أعن وخذ القلاص كشتف حالا  
2- ودرا خلت أنجمه عليه  
3- وقلت الشمس بالبيداء تبر  
4- وفي ذوب اللجين طمعت لما  
5- رماك الله من نوق بروق  
6- فقد أكثرت رحلتنا وكانت  
7- تذكرك الثوية من ثدى  
8- ولو أن المطي لها عقول  
9- مواصلة بهارحلي كأني  
10- سأئن فقلت مقصدنا سعيد  
ومن عند الظلام طلبت مالا؟  
فهلا خلتن به ذبالا  
ومثلك من تخيل ثم خالا  
رأيت سراها يغشى الرمالا  
السنوات تتركك الإفالا  
صغار الشهب أسرعها انتقالا  
ضلال ما أردت به ضلالا  
وجدك لم نشد بها عقالا  
من الدنيا أريد بها انفصالا  
فكان اسم الأمير لهن فالأ

(1) شروح سقط الزند : 2 / 822 .

(2) المرجع السابق : 1 / 169 .

(3) المرجع السابق : 1 / 105 .

(4) المرجع السابق : 1 / 184 .

(5) المرجع السابق : 1 / 41 .

الأمر أعمق من اسم الأمير ، بل يتعلق بالمقصد نفسه في علاقته بالواقع في بداية القصيدة . كان المقصد سعيداً ، فماذا عن الواقع ؟ وما دلالة الفأل هنا وما علاقة رحلة الناقة التي يريد بها الانفصال عن الدنيا بالمقصد السعيد واسم الأمير؟ وما دلالة التحول الذي يحدث في القصيدة ويبدو جلياً في الانتقال من المقدمة / الفقد ، إلى المدح / الوجد ؟ من العجز والضعف إلى القوة والإرادة وبعث الحيوية من خلال النموذج ، رغبة في النجاة وخلاصاً من اليأس والضعف في بداية القصيدة . القصيدة استبطان للذات وصراع مع الوجود ، لوحة المقدمة ولوحة المدح وجهان للذات ، ولا بد من الكشف عن العلاقة بينهما ؛ لرؤية القصيدة أكثر وضوحاً . فالقصيدة تترامى عبر المقدمة والرحلة إلى ذلك المدح الأمير :

48- ولكن بالعواصم من عدي أمير لا يكلفنا السؤال

والسؤال دليل الظمأ والفقد والعجز الذي يبدو في موقف الشمس والثريا (تتوقى) أسنة الأمير ، والشمس (لا تقدر) على الرجوع بعد الزوال . وإزاء هذا الضعف والعجز نجد الأمير قوياً قادراً ؛ ولذا يتهلل الشاعر له :

75- ليهنك في المكارم والمعالي كمال علم القمر الكمالا

فما هي تلك الشمس التي لا تستطيع الرجوع بعد الغروب ، وما علاقتها بالشاعر أولاً وبالأمير ثانياً ؟ وما علاقتها بالشمس في البيت الثالث (وقلت الشمس بالبيداء تبر) والسراب والتخيل والضلال ؟ أليست القصيدة كلها توترأ بين الواقع والحلم والخيال ، بين الفقد والوجد بين الظلام والنور ؟ أليست القصيدة ابتهاجاً للعيد الغائب ، وابتعاشاً للحيوية والقوة والإرادة ؟

ولتأمل التهتهة بالمكارم وبالمعاني ، والإلحاح على ذلك والتشبث به . والأمير أجل

من عيد :

80- وأنت أجل من عيد تهنا

بعودته فهنيت الجلالا

81- ومر بفراق شيمتها الليالي

تجيبك إلى إرادتك امتثالا

فهل نستطيع أن نقيم علاقة على هذا النحو بين النموذج والسؤال في بداية القصيدة أو المقدمة كلها ؟ وما علاقة ذلك الحديث بالشيء وذهاب الشباب وتلك المهارة في ذلك الليل ، التي أراد الشاعر أن يصيدها ؛ فتم بطيفها الجواد وصهيله ؟ ربما تتضح تلك العلاقات في ظل ذلك السياق الرمزي وعلاقته بذلك الغائب . إن الاهتمام بالمدح وخيله و.. اهتمام بالفقد والغياب من وجه آخر ، اهتمام بذلك السر الذي لا يحوزه إلا المدح ويخفى ولا يظهر إلا له <sup>(1)</sup>.

7- تخفى ولا تظهر إلا إذا أحرزها منزلك الأعظم

8- كأنها سر الإله الذي عندك دون الناس يستكم

ومدح أبا الفضائل سعيد بن شريف بن علي بن أبي الهيجاء - فيتراعى الحديث عن المدح حتى يصل إلى خيله وما ترده من ماء ، ومنها إلى قوله : <sup>(2)</sup>

55- كلا كفيك في سلم وحرب يكون الخوف منها والأمان

56- فليس بشاغل اليمنى حسام وليس بشاغل اليسرى عنان

ثم يلتفت الحديث الثغاة غريبة في الظاهر عميقة الصلة بكل ما سبق في الباطن الرمزي ، وهي توجيه الحديث إلى الآخر الذي لم يكن موجود في القصيدة من قبل :

57- فكن في كل نائبة جريئنا نصب في الرأي إن خطئ الهدان

58- وسائل من تنطس في التوقي لأية علة مات الجبان

59- فإن تعاون الأملاك جهل على ملك بخالقه يعان

60- يعبر سيفه لفظ المنايا كما شرح الكلام الترجمان

61- ويسلك رمحه في كل باغ كما سلك المضيق الأفعان

62- ويكنى باسمه عن كل مجد وكل اسم كنيته فلان

63- ويعدم عنده في الجود مطل ومعدوم مع العتق الحران

(1) شروح سقط الزند : ( 2 / 847 ) .

(2) شروح سقط الزند : ( 1 / 216 ) .

- 64- إذا سميته في أرض جذب      نزلت وكل رابية خوان  
65- تناولت الوهاد هوى وشوقا      إليه كما تقاصرت الرعان

ووجه الغرابة في ذلك الالتفات ليس دخول طرف جديد عبر التجريد في الحوار ، وإنما لون الخطاب نفسه الذي انعطف بشدة نحو الجرأة والجبن ، وعلاقتهما بالموت وحتميته وأنه أمر إلهي لا مرد له ، وهذا أمر يلح على الرؤية العلائقية التي لا ترى غير الشجاعة في مواجهة الموت ، وأن الإنسان عليه أن يكون شجاعاً ، فالجبن لا يقبي والشجاعة لا تهلك . وعلى ذلك فالشجاعة أولى بالاختيار ، فضلاً عن كونها أحق من الجبن وأكثر لنفس الإنسان أزمى .

ثم تنتهي القصيدة بالتفات آخر إلى المدحوع وعلاقته بالمكارم :

- 65- تناولت الوهاد هوى وشوقا      إليه كما تقاصرت الرعان  
66- ستفديك المكارم راضيات      وما منها بفديتك امتنان  
67- إذا صالت فأنت لها يمين      وإن نطقت فأنت لها لسان

تعرض قيم القوة والشجاعة والجود والكرم في ظل هذا السياق لغير قليل من التغيير ، فالجود تغير مفهومه ، والقوة تبدلت أركانها ، والمكارم لا قيمة لها إلا في علاقتها بذلك المدحوع ؛ فهو يمينها ولسانها ، هكذا يتكشف الحاضر عن غائب ربما يكون أهم منه ، أو على الأقل لا يفهم هذا الحاضر بعيداً عن ذلك الغائب فلكل ظاهر باطن وعمق .

كان أبو العلاء يبني نموذجاً للنفس الإنسانية الشريفة في نمودجه/ المدحوع ، كان يعكف على النفس يتأملها وينازلها ليكشف عن حقيقتها . كان يبحث عن الحياة حرة شريفة سامية . كان يطهر النفس بالحرب والدم من خلال الاهتمام بالحرب وآلاتها ، والتركيز على القرع والصراع والمناوشة ، فالحياة أمرها أذب ؛ ولذا كانت النفس شديدة قوية ، وكان النمودج فارساً يجمع المكارم والمعالي .

كان أبو العلاء - إذن - وفياً للحياة ولكن علينا ألا ننسى السؤال الأساسي : أي حياة يفني لها ؟ لم يكن أبو العلاء يرى الحياة لذة ومتعة فارغة من القيمة والشرف والمعاناة ، بل إن القيمة والشرف والمعاناة والصراع والحرب هي الحياة جميعاً . الحياة تستحق المعاناة وخوض الحرب فهي حرب وتحتاج الحرب إلى فارس مغوار عكف أبو العلاء على تمثاله ؛ ليكشف لنا عن معالنه وقسماته .

المددوح (ملك بمخالقه يعان) فلا ينفع تعاون أو تأمر عليه . فما ذلك الجود الذي يرجى من المددوح ؟ ربما لا يتبين قدر الجود إلا في علاقته بالحياة والليل والحرب ، فإذا كانت (سعدى) بخيلة ، وكان المظل ستمها والتردي حالها - فإن المددوح حيثئلو - جود يرجى وحلم وأمنية عزيزة ؛ لتلاشي نقصها . فالنموذج بعث للحيوية المنقطعة ومحاولة لاستمرار الحياة أو استعادتها وتخليصها من برائن الضعف والدنس والتدني . ألا يعد ذلك إطلالة عميقة ذات مغزى متعدد الأبعاد ، على النفس والمجتمع والحياة جميعاً ؟ هل يمكن أن نتغاضى عن أوجه الضعف والعجز الواضحة في قصائد المدح جنباً إلى جنب مع وجوه القوة والإرادة ..؟ وهل يرى وجه من دون الآخر ؟ لعل حيوية القصيدة وفعاليتها لا تبدو بمعزل عن التفاعل والجدل بين الوجوه متآزرة ومتصارعة .

يقول أبو العلاء :<sup>(1)</sup>

21- سر أهل الأمصار والبدو حتى جازهم عامدا لأهل القبور  
22- رد أرواحهم فلولا حذار الله ه قاموا من قبل يوم النشور

المددوح النموذج هو السعادة والسرور . بين (أهل الأمصار) و (أهل القبور) مسارب خفية . فكلاهما وجهان لعملة واحدة ، فليس وراء هذه إلا تلك ، وهما حالان مختلفان متعاقبان للإنسان ، ولكن القصيدة ربما رأت شيئاً آخر ، من خلال المفارقة التي ينطوي عليها البيت في هذا التكرار ، الذي يتراءى طرفاه إلى ما لا نهاية كمرأتين

(1) شروح سقط الزند : 1 / 234 .

متقابلتين ، هنا نستطيع أن نفهم قوله : ( رد أرواحهم) من خلال مفارقة أهل الأمصار ،  
 أهل القبور .  
 يقول :<sup>(1)</sup>

- |                            |                                  |
|----------------------------|----------------------------------|
| قلنا محمد من أيه بديل      | 10- لولا انقطاع الوحي بعد محمد   |
| لم يأت به برسالة جبريل     | 11- هو مثله في الفضل إلا أنه     |
| إذ لا يقام على الدليل دليل | 12- قل للذي عرفت حقيقته به       |
| أرنت وعقد حزامها محلول     | 13- ما بال سابقة يصل لجامها      |
| بالجري وهو مقيد مشكول      | 14- كالطرف يقلقه المراح صبابة    |
| نضب الفرات لها وغاض النيل  | 15- أكذبا الجياد إذا أرادت موردا |

المشكل عرفت حقيقته به ، فلا يقام على الدليل دليل ! يقول :<sup>(2)</sup>

- |                            |                              |
|----------------------------|------------------------------|
| ومطلوب من اللسن البيان     | 19- ويطلب منك ما هو فيك طبع  |
| وهل ينبي عن الموت امتحان ؟ | 20- وممتحن لقاءك وهو موت     |
| ولا يعدي على الشمس اضطغان  | 21- ومضطغن عليك وليس يجدي    |
| سرائره وكل هوى هوان        | 22- ورب مساتر بهواك عزت      |
| ليعلنها وقد فات العلان     | 23- أحبك في ضمائره ونادى     |
| وقبل صلاته وجب الأذان      | 24- وصلّى ثم أذن مستقبلا     |
| عليه لكل مكرمة ضمان        | 25- تضمن منك ذي الدنيا مليكا |

المشكل كالموت معجز أعجزت في الوصف سجايه . وهو دليل لا يقام عليه دليل ،  
 فهو أصل وجوهر ومبدأ وغاية بعيدة ، وورد عزيز المنال على طرف نشيط قلق صب ،  
 مقيد مشكول كذلك . ومن ثم فاللقاء - دائماً - يكون بالروح دون الجسد ، فقد قرب  
 المزار ولا مزار .

(1) شروح سقط الزند : 2 / 873 .

(2) المرجع السابق : 1 / 185 .

يقول : (1)

35- ودون لقائك الهضبات شما تفوت الطرف والفلوات فيحا

اللقاء بالمدوح / النموذج دائماً لقاء ذو خصوصية ، فلماذا تلك الخصوصية ، وما علاقتها بالبحث عن الذات وحقيقة الوجود ؟ لا يمكن تأمل الحياة بمعزل عن الموت ، الإنسان مغلول وحرته مرتبطة بقيوده ، وحلم الخلاص والنجاة لا ينفك عما ينجو منه . المشكل مناط حركة روحية عميقة الجذور . يكشف الجدل بين الهوى والهوان والعزة عن حركة الوعي بحقيقة الوجود الإنساني . ما ذاك العلان الذي فات والأذان الذي يتلو الصلاة ؟ وما دلالة الأذان بعد الصلاة استقالةً ، وما قيمته ؟ تعز السرائر بهواه ولكن تنجو تلك العزة من الهوان فكل هوى هوان ، وكل إثبات ينطوي على نفي . إن ما يعز به الإنسان يذله ! وكيف كان الأذان بعد الصلاة ؟ من قبل كانت الصلاة بلا إمام ومقصورها طويلاً ، فما طبيعة تلك الصلاة ولن تكون ؟ لماذا (مساتر) و(ضمائر) ؟ ! ثمة فوت أضنى الإنسان البحث عنه والتعلق بمباله في تعلقه بمبال الشمس ! ذاك الفوت أو الفقد هو لب أزمة أو المازق الروحي .

5. الرحلة إلى المدوح :

لما كان المدوح هو ذلك المجهول على الرغم من تعدد أسمائه ، التي تعد مناوشتها رغبة في الكشف عن ذلك المجهول وتقييده أو تأطيره - لما كان المدوح كذلك كانت الرحلة شاقة قاسية محفوفة بالمخاطر . يقول : (2)

28- تقطع في نقياك دوية يدمها الحافر والمنسم  
ويقول : (3)

36- فجاءك كلها بالروح فردا وقد سرنا به جسداً وروحاً

(1) شروح سقط الزند: 1 / 267 .

(2) المرجع السابق : 2 / 860 .

(3) المرجع السابق : 1 / 268 .

فالناقة هي نفس الشاعر وهي الحياة التي تقله ، وعبر التجريد يصل الشاعر إلى المدوح بناقته ؛ رحلة الناقة هي رحلة النهر إلى المصب / المدوح . فهو قبلتها التي لا تحيد عنها ، وإن لم تعرفها وتساءلت عنها فإنها لا تكف عن السعي إليه . يقول :<sup>(1)</sup>

- وإن ذهلت عما أجن صدورها فقد ألهبت وجرأ نفوس رجال  
لماذا استراتيجية الرحلة على الخصوص؟! ليس الجواب بالصحراء والبيئة .. كافياً .  
وإن كان مهماً وضرورياً بوصفه الواقع المحيط والمتاح . ولكن المفازة مهلكة وهي من هذا  
الوجه تتداخل مع الحرب في لوحة المدوح . الرحلة ارتحال من .. إلى .. والرحيل  
انفصال عن .. واتصال بـ .. الرحلة فراق ولقاء معاً ، هجر ووصال ، سام وشوق ، بعد  
وقرب ، وعلى الرغم من أن المدوح يظل أينما كان والرحلة دائماً تتجه نحوه <sup>(2)</sup> .  
يقول :<sup>(3)</sup>

- ولو صنعاء كنت بها لهزت هواي إليك نوق أو جمال  
- عسى جد تغثره الليالي يقال له لنا ولمن يقال!؟

إلا أنه كذلك حجر يتسلمه الحجاج ويذهب إليهم أينما كانوا ! إليك الرحلة !<sup>(4)</sup>

- إليك طوى المفاوز كل ركب سما بهم التغرب والبعاد

(1) شروح سقط الزند : 3 / 1182 .

(2) يقول المتنبي : (معجز أحمد : 1 / 311) .

- محبك حيث أتجهت ركابي وضيفك حيث كنت من البلاد  
ويقول : (معجز أحمد 1 / 184) .

- كن حيث شئت تسر إليك ركابنا فالأرض واحدة وأنت الأرحد  
(3) شروح سقط الزند : 4 / 1664 .

(4) المرجع السابق : 1 / 306 .

تطوى المغاوز إليه فوزاً به ، وفوزاً بالسمو في التغرب والبعاد . الرحلة غربة  
واغتراب وشوق من أجل السمو : (1)

- |                                    |   |
|------------------------------------|---|
| 65- تطاولت الوهاد هوى وشوقاً       | إليه كما تقاصرت الرعان                  |
| 23- متى أنافي ركب يؤمون منزلاً     | توحد من شخص الشريف بأوحد <sup>(2)</sup> |
| 24- على شدقميات كأن حداتها         | إذا عرس الركبان شراب مرقد               |
| 25- تلاحظ أعلام الفلا بنواظر       | كحلن من الليل التمام بإثمد              |
| 26- وقد أذهبت أخفافها الأرض والوجي | دما وتردى فضة كل مزبد                   |
| 27- يخلن ساما في السماء إذا بدت    | لهن على أين سماوة مورد                  |

متى ؟ متى التوحد ؟ ربما كانت الرحلة هي رحلة العودة وهي رحلة الوعي  
الإنساني الذي يستكشف به الشاعر أمر الحياة في رحلة الناقة ، وأمر المجهول في لوحة  
المدوح . الرحلة بحث عن المجهول ، وشوق إليه . والقصيدة انشغال واشتغال بالغياب ،  
مغامرة ومخاطرة ، يمتحن فيها الشاعر ذلك المدوح المشكل ويستوضحه ويستكشفه قدر  
ما يوجد عليه الوعي الإنساني بالغياب في بهائه وإشراقه وظلمته ، في قوته وجبروته  
ويطشه وجوده وعطائه وحلمه .. وبحث عن المدوح بحث شاق في الوجود الإنساني  
وتأمل عميق في حقيقته

يقول : (3)

- |                            |                         |
|----------------------------|-------------------------|
| 1- متى يضعفك أين أو مالال  | فليس عليك للزمن ابتهاال |
| 2- وحبل الشمس مد خلقت ضعيف | وكم فنيت بقوته جبال     |
| 3- كتابك جاء بالنعمة بشيرا | ويعرض فيه عن خبري سؤال  |
| 4- وحالي خير حال كنت يوما  | عليها وهي صبر واعتزال   |

(1) شروح سقط الزند : 1 / 222 .

(2) المرجع السابق : 1 / 367 .

(3) المرجع السابق : 4 / 1657 .

- 5- ويلقى المرء في الدنيا صحيحاً  
6- فأما أنت - والآمال شتى -  
7- بعدنا غير أننا إن سعدنا  
8- فأرقنا طروقك لا أثيل  
9- ولو صنعاء كنت بها لهزت  
10- عسى جد تعسره الليالي  
11- وقد ترضى الباشاة وهي خب
- كحرف لا يفارقه اعتلال  
فلقياك السعادة لو تنال  
بغبطة ساعة عكف الخيال  
مؤرقة الهجود ولا أئال  
هواي إليك نوق أو جمال  
يقال له نعا ولمن يقال ؟  
وبروى بالتعلة وهي آل

تبدأ قصيدة (المدح أو التهئة) بالأين والملا ! وترك الابتهاال وحبل الشمس الضعيف القوي الذي يفنى بقوته - على ضعف الحبال (وكم فنيت بقوته حبال) . والخطاب في البيت الأول للذات على التجريد . والأمر كله متعلق بالزمان وصروفه وغدر (الليالي) والأيام (الطوال) . فثمة علاقة بين (ويضعفك) وحبل الشمس (ضعيف) ، وبين حبل الشمس والزمن .

ثم يأتي الخطاب في البيت الثالث (للممدوح المهنا) ويشري كتابه بالنعمى، وسؤاله عن خبره ، ويتحد حال الشاعر بحال المهنا وهي خير حال كانا عليها (صبر واعتزال) صبر على الدنيا واعتزال الناس . فسلامة الإنسان في الدنيا داء ، وصحته سقم ، فالعلة كامنة فيه صحيحاً ! فما باله معتلاً !

وجود الإنسان مطبوع على الاعتلال في أصل وضعه ، الاعتلال لازم له في هذه الدنيا. ذلك الاعتلال هو ما ينتظره من الموت المحتوم ، وإذا كان الوجود الإنساني على هذا النحو من الشقاء ففي أي شيء تكون السعادة ؟

يأتي البيت السادس انتقالاً من ذلك الاعتلال في الحديث عن حال الذات ، إلى الآخر / المهنا ، وهو انتقال سطحي فحسب . فالحديث عن ذلك الاعتلال ما يزال يشغل الرؤية (فأما أنت)، لقاء الممدوح / المهنا هو ما يؤرق الشاعر ويقلقه .

الا يشك أبو العلاء في إمكانية حصول السعادة من جراء اللقاء ، بقوله : (لو تنال) ؟  
الا يمكن أن يكون تفرق الآمال في لقاء ذلك الممدوح ، كما أن السعادة فيه كذلك ؟  
كذلك الاشتباه في قوله :

9- ولو صنعاء كنت بها لهزت      هواي إليك نوق أو جمال

10- عسى جد تعثره الليالي      يقال له لعا ولمن يقال ؟

ربما أخذ أبو العلاء ما أعطاه ، وشك فيما أثبتته ونفاه ، وذلك من خلال الوعي بحقيقة الموقف وأبعاده المتضاربة . فهو بعيد (بعدنا) غير أنا (إن) سعدنا بغبطة ساعة عكف خياله مؤرقاً ، فهو على بعده مدركه بخياله المقيم المؤرق (فأرقنا طروقك) . الممدوح هو ذلك المؤرق الغائب الحاضر الذي لا يريم !

لا تختلف فكرة قرب المهنا على بعده ، عن فكرة قوة جبل الشمس على ضعفه ، أو فكرة اعتلال المرء على صحته ، وسقمه على سلامته ، أو فكرة الرضا بالبشاشة على خداعها ومكرها ، أو فكرة الري بالتعلة وهي سراب ، أو فكرة النجيب المقيد ولا قيد ، أو عن فكرة السعادة في اللقاء وامتناعها ؛ ومن ثم فإن القصيدة بحث عن الحقيقة في التناقض والاختلاف والتداخل والجدل بين الأطراف والوجوه . فلو كان بصنعاء لآتاه به فرط اشتياق ، عسى سعد تعثره الليالي يقال ، أو يقال له لعا ولمن يقال ؟! الحرف لا يفارقه اعتلال ، والعمر إذا أذبر لا يقبل ، والحياة إن ذهبت لا تعود ؟ ولكن قد ترضى البشاشة وهي مكر وخداع ، ويرتوي الإنسان بالتعلة وهي كالسراب الذي لا يري للظمان فيه . هل يمكن أن تفهم طبيعة اللقاء بمعدة عن ذلك البيت الذي يتشكك في البشاشة وفي التعلة بها ؟ السعادة - إذن - خب وخداع والتعلة بالبشاشة في اللقاء ارتواء بالسراب .

ما زالت المفارقة هي عدسة الرؤية الكاشفة عن حقيقة الموقف . ترضى البشاشة وهي مكر وخداع ، ويروي بالتعلة وهي سراب ، وتؤمل السعادة في اللقاء وهو موت :

20- وممتحن لقاءك وهو موت      وهل ينبي عن الموت امتحان ؟

ربما كانت الرحلة في أحد وجوهها خلاصاً من هذا الموت وتخففاً من عبئه ، وتطهيراً

منه بالدم . يقول :

- |                            |                                 |
|----------------------------|---------------------------------|
| يمين للشملة أو شمال        | 12- تعالي الله هل يمسي وسادي    |
| متى ينهض فليس به انتقال    | 13- وهل أرمي بمتلفة نجيبا       |
| ولا قيد هناك ولا عقال      | 14- كأن عليه قيذا أو عقالا      |
| كما تتصاهل الخيل الرعال    | 15- تصاهل حوله الحدأ النوادي    |
| وقبل الذكر يندرس الفعال    | 16- فعال كان أودى غير ذكر       |
| وتلك لعمرى الراح الحلال    | 17- أرى راح المسرة أثلتني       |
| وأنستنيه أيام طوال         | 18- وقبل اليوم ودعني مراحي      |
| يقينا لا يظن ولا يخال      | 19- هنيئا والهناء لنا جميعا     |
| يهش لبرقها عصب نهال        | 20- بمنتظر مراقبة السواري       |
| لهم عن كل مكرمة نضال       | 21- على آسان آباء كرام          |
| وإن حرموا العظام لم يبالوا | 22- إذا فالوا الرغائب لم يتيهوا |

هنا يأتي دور السؤال / القناع . السؤال يضعنا أمام (المشكل) الذي لا يحل ، والحيرة التي لا تنقضي . يكون السؤال دائما عندما يكون الوعي ، فهو بنية الوعي الذي يتشكل على مدى القصيدة ، حتى إذا ما اكتمل انبثق في السؤال الذي يحاول الاحتفاظ بجمرة الحقيقة متوهجة. السؤال وعي بمفارقة الحياة ورحلتها ، تلك الرحلة البدع : (1)

- ونحن السفر في عمر كمرت تصافن أهله جرع الحمام

ما تلك (المتلفة) وما ذلك (النجيب) المقيد بلا قيد الذي تجتمع حوله الحدأ؟ أو ذلك الحرف الذي لا يفارقه اعتلال؟ وما دلالة (أودى) و (يندرس) و (ودعني مراحي) و (أنستنيه) في علاقتها بـ (أيام طوال) وما تلك الراح الحلال ، راح المسرة؟ أها علاقة بالسعادة السابقة؟ أها علاقة بلفظ كأن السكر من معانيه؟

(1) شروح سقط الزند : 4 / 1432 .

يضعنا السؤال - إذن - على الأعراف بين ما أودى ولا يفيد أن يقال له لعاً وبين  
هنا لا يضمن ولا يخال ، هتاء للجميع بغيث مرتقب ارتقاب الصحب السواري التي تشيم  
العيون برقها ، وتهش به ، وتنتظر انسكابها وودقها فهم عصب نهال ! ليس ثمة علاقة  
بين (يهش) و(البشاشة وهي خب) و(عصب نهال) والرّي بالتعلة (وهي آل) ؟ ولماذا  
كان الهتاء يقيناً وللجميع ؟ لأنه على آسان آباء كرام ؟ وما دلالة البرق بالسيف في  
البيت الحادي والثلاثين ؟ ألا يلتبس الميلاد بالموت والهتاء بالشقاء ؟ ما دلالة القوافي  
التي بنيت على الإبطاء في علاقتها بالغبيران ؟<sup>(1)</sup>  
يقول :

- |                              |                          |
|------------------------------|--------------------------|
| 23- فيا ركبا غدت بهم ركاب    | تنص على غواربها الرحال   |
| 24- مآلك حملها يجزي بشكر     | وإن تأبوا سوى مال فمال   |
| 25- تخب إلى المشرف آمناات    | كلالا إن ألم بكم كلال    |
| 26- فإن أنكرتموه بأرض مصر    | فأوصافي له معكم مثال     |
| 27- أغر تطول أعناق المطايا   | إليه إذا تقاصرت الظلال   |
| 28- ولاد من الغزالة وهي تذكي | بغرز الراكب القلق الغزال |
| 29- وثانية نهى توفي بقدس     | وثالثة ينكيل ولا ينال    |
| 30- دلائل مشفق يخشى ضلالا    | وكيف يخاف عن قمر ضلال    |

(1) يقول : (الشروح / 3 / 1274 )

- |                                   |                            |
|-----------------------------------|----------------------------|
| 12- طار النواعب يوم فاد نواعيا    | فندبه لموافق ومناف         |
| 13- أسف أسف بها وأثقل نهضها       | بالحزن فهي على التراب هواف |
| 14- ونعيبها كتحبيبها وحدادها      | أبدا سواد قوادم وخواف      |
| 15- لا خاب سعيك من خفاف أسحم      | كسحيم الأسدي أو كخفاف      |
| 16- من شاعر للبين قال قصيدة       | يرثي الشريف على روى القاف  |
| 17- جون كبت الجون بصرخ دالبا      | ويميس في برد الحزين الضافي |
| 18- عقرت ركائبك ابن داية غاديا    | أي امرئ نطق وأي قواف       |
| 19- بنيت على الإبطاء سائلة من الـ | إقواء والإكفاء والإصراف    |

- 31- بأن الله قد أعطاك سيفاً  
 32- حسام لا الدباب له قرين  
 33- ولا أدنى القيون إليه ناراً  
 34- إذا خلل السيوف بلبين يوماً  
 35- وقد سماه سيده علياً  
 36- أهل فبشر الأهلين منه  
 37- بإخوته الذين هم أسود  
 38- فإن تواتر الفتيان عز  
 39- وهل يشق الفتى بنماء وفر  
 40- وأول ما يكون الليث شبل  
 41- ستركز حول قبتك العوالي  
 42- فإن منأى أن يثرى حصاكم  
 43- وأن تعطوا خلوداً في سعود
- عدوك من مخايله يهال  
 ولا درجت بصفحته النمال  
 إرادة أن يهدبه الصقال  
 تبلج لا تثرث له خلال  
 وذلك من علو القدر فال  
 محيا في أسرته الجمال  
 على آثار مقدمه عجال  
 يشيد حين تكتهل الرجال  
 إذا لم تتل أينسقه فصال  
 ومبدأ طلعة البدر الهلال  
 وتكثر في كنانتك النبال  
 وتقصر عن زهاتكم الرمال  
 كما خلدت على الأرض الجبال

تكشف الرؤية في حركة أخرى عن تلك الرحلة ، رحلة الراكب إلى (المشرف) . وتهتم الرؤية بالمشرف (الغاية) أكثر مما تهتم بالراكب والركاب . فالراكب نكرة (يا ركباً) وفيه شمول وتعميم ولم يذكر إلا في هذا النداء ، ثم في (إن ألم بكم كلال) واعتلال ، أما الراكب فهي تنص وترفع وتستحث في السير و(على غواربها الرحال) الكلمات تتفاعل فيما بينها (غدت - تنص - غوارب) . أما المشرف فيحظى بنصيب وافر من الاهتمام . الشاعر مشفق يخشى أن نضل عنه فيضع مثلاً لأوصافه . وهل يخاف على قمر ضلال ؟ إنه (يقين لا يظن ولا يخال) وقمر لا يضل عنه ، فهو سيد (أغر) يلتجأ إليه (إذا تقاصرت الظلال) لماذا وقت الهاجرة الشديد الحر خصوصاً ؟ لا يكفي أن نقول إنه الوقت الذي يقصر فيه ظل كل شيء ، الهاجرة وقت لا يطاق حر الشمس فيه (وهي تذكي) لذا يلوذ الغزال - في ذلك الإيهام - حيث يفر (الغزال) من (الغزالة) - بفرز الراكب القلق ، وهو موضع وضع القدم للركوب ، ويا له من ملاذ ! حيث لا يجتمى من

الشمس إلا تحت ذلك الغرز ، غرز الراكب القلق ، ربما لا يجتمى من المهجير إلا بالمهجير ،  
هذه أولى صفاته أنه ملاذ من المهجير فهل كان أبو العلاء يستجير من الرمضاء بالنار؟!  
وثانية أوصافه : أنه ذو عقل وطهارة ، وثالثتها : بينل ولا ينال .

ثم ينتقل أبو العلاء إلى سيف المشرف أو المولود المهنتا به ، والذي يهال العدو من  
مخايله ، ولا تترث له خلال وكذلك في مجيئه الجمال . وإذا كان أبوه مشرفاً فهو علي  
(وذلك من علو القدر فال) . وتنتهي القصيدة بما سيركز حول قبة المشرف من العوالي  
والنبال التي ستكثر في كنانته . وبالمقابل تدعو بصيغة الجمع (فإن منايا أن يثرى حصاكم)  
(وأن تعطو خلودا في سعود) ولكنه خلود الجبال على الأرض ، خلود بلا وعي ولا أمانة ،  
ولذلك فهو صعود ؛ لأنه ليس ثمة ما يقلقه أو يؤرقه . الاشتباه مرة أخرى خلود الجبال  
وسعوده وفقد الوعي . تكثر نباله ويثرى حصاهم ، ويثرى الحصى ويعطو خلوداً في  
سعود ، كخلود الجبال الجامدة . الحركة الجدلية بين زيادة النبال وزيادة الحصى ، وكلما  
زاد الحصى تحول على يدي النبال إلى جبال خالدة جامدة . هكذا كان الجدل بين الهناء  
والشقاء بين الحياة والموت ، بين الوعي وفقده بين فناء الإنسان وخلود الجبال . وكانت  
الرحلة إلى المشرف رحلة الوعي ومجتأ عن الحقيقة ، وصراعاً مع المجهول على بساط من  
لغة الوعي والمخيال .

يقول :<sup>(1)</sup>

فكيف شاهدت إمضائي وإزماعي  
صبري وعمري وأحلاسي وأنساعي  
وإن رأيت بياض الصبح فانصاعي  
فإنه للهوادي غير قطاع  
في حنص الخطب ساع بالهدى شاعي  
أسعى إليه ورأسى تحتي الساعي

1- لا وضع للرحل إلا بعد إيضاع  
2- يا ناق جدي فقد أفنت أناتك بي  
3- إذا رأيت سواد الليل فانصلي  
4- ولا يهولنك سيف للصبح بدا  
5- إلى الرئيس الذي إسفار طلعتة  
6- يممته وبودي أنسي قلم

(1) شروح سقط الزند : 2 / 741 .

رب القدوم بأوصال وأضلاع  
بسائل من ذفاري العيس منبعاع  
ولا تهش لإخصاب وإمراع  
تزجي وتدفع في موج ودفاع  
طافوا بها فأناخوها بجعجاع  
بعصرها في بعيد الورد لماع  
وللدراعين أخرى ذات إسراع  
في مهمه كصلاة الكسف شعناع  
من خوف كل طويل الرمح خداع  
ليلا وفي الصبح ألقها إلى القاع  
ومنزل بين أجراء وأجزاء  
في البيد كل شجاع القلب شرعاع  
هاجرت في حبههم رهطي وأشباعي  
أسفت لابل على الأيام والساع  
من زائر لجميل الود مبتاع  
لحم النوائب شراب بأنقاع  
أريبت غير مجيز خرق إجماع  
من المودة معطي المد بالصاع  
ولو عددت أخا عدم وإدقاع  
قول ابن الأسلت قد أبلغت أسماعي  
شف يناط بأذن السامع الواعي  
إن كن لسن لإسراف وإطمع  
عن المسيب أرواح لقعقاع  
مثل الفرزدق في إرسال وقاع  
على المطايا وسرحان لها راع

7- على نجاة من الفرصاد أيدها  
8- تطلي بقار ولم تجرب كأن طليت  
9- ولا تبالي بمحل إن ألم بها  
10- سارت فزارت بنا الأنبار سالمة  
11- والفارسية أدتها على نقر  
12- ورب ظهر وصلناها على عجل  
13- بضربتين لظهر الوجه واحدة  
14- وكم قصرنا صلاة غير نافلة  
15- وما جهرنا ولم يصدح مؤذنا  
16- من معشر كجمار الرمي أجمعها  
17- يا حبذا البدو حيث الضب محترش  
18- وغسل طمري سبعا معاشرتي  
19- وبالعراق رجال قريهم شرف  
20- على سنين تقضت عند غيرهم  
21- اسمع أبا حامد فتيا قصدت بها  
22- مؤذب النفس أكال على سغب  
23- أرضى وأنصف إلا أنني ربما  
24- وذاك أني أعطيتي الوسق منتحيا  
25- ولا أثقل في جاه ولا نشب  
26- من قال صادق لنام الناس قلت له  
27- كان كل جواب أنت ذاكره  
28- إن الهدايا كرامات لآخذها  
29- ولا هدية عندي غير ما حملت  
30- ولم أكن ورسولي حين أرسله  
31- مطيتي في مكان لست آمنه

32- فارفع بكفي فإني طائش قدمي وامدد بضبعي فإني ضيق باعي  
33- وما يكن فلك الحمد الجزيل به وإن أضيعت فإني شاكر داع

الوعي ينعكس على ذاته والقصيدة كلها رحلة أو الرحلة موضوعها ، ومن ثم فالذات أو النفس أو الناقة أو السفينة والرحلة نفسها والممدوح / الرئيس هي عناصر القصيدة والرحلة ، ومراحلها ، والرحلة - كالعادة - رحلة إلى النور ، ويبحث عن الصباح ، ومقر للرحل والراحلة جميعاً فقد نفذ الصبر والعمر والأحلاس والأنساع :-

- ياناق جدي فقد أفنت أناتك بي صبري وعمري وأحلاسي وأنساعي

ما هذا الفناء المروع ؟ وما هذا الفقد المتتابع كموج البحر ؟ ما دلالة هذا النداء الداخلي العميق ؟ ما هذا التمزق ؟ وما هذا الضيق بالأنساء وما علاقته بالجمعجاء وبيعيد الورد لماع ويشعشاع ؟

الرحلة محاولة للانصلات من سواد الليل وخروج من مهمه ومن بحر ذي دفاع ، ولكن الإناخة بجمعجاء كذلك ، يكشف ذلك الصراع النفسي المحتدم عن عمق المأساة وشدة الخندس وقسوة الرحلة وقلق الذات وتوترها . الرحلة هجرة داخل النفس للمراجعة والكشف ، وهي جهاد ومشقة ووعي . الذات تشكو الأنساء وفناء الصبر .. ومهمه وأمواج بحر ذي دفاع وجمعجاء لم تخرج منه بعد ، الرحلة تعاني الضيق والقيود فلا حركة ولا انطلاق أو بسط ، فأناة الناقة هي حركة السفينة في أمواج البحر الثابتة على حركتها فهي لا تتقدم ، كذلك الجمعجاء والورد اللماع والشعشاع .

الذات تشك في الرحلة أو ترتاب في الرئيس وترهبه (أسعى إليه ورأسي تحمي الساعي) (بودي) (تزجي تدفع) ، ثمة اضطراب فالسعي بالناقة أو على سفينة تطلعي بقار من عرق الإبل!<sup>(1)</sup> لا تبالي بمحل ألم ولا تهش لإخصاب أصاب ! ثم هم أكبر يشغل الرحلة ،

(1) ومطوية قار الظلام وما بدأ بها جرب إلا مواقع أنسع

(الشروح : 4 / 1529)

والرحلة في بحر متلاطم الأمواج ذي دفاع والإناخة بمججعا ! (تزجي وتدفع في موج ودفاع)  
فلا وجهة للسفينة . أيتختلف البحر عن حندس الخطب أو الليل ؟ وما العلاقة بين سعي  
الرئيس وسعي الذات / أو القلم ؟ لماذا رأسي الساعي ؟! ولماذا على رأسي ؟

كان سهيل بلا قدمين ، فما العلاقة بين سهيل الغاضب المسرع في عجزه، المضرج  
بالدم في صراعه مع حومة الدجى - وبين ذلك القلم ؟! أكانت الرحلة إلى الرئيس  
رحلة إلى النفس ؟ أتبحث عن التثام ووفاق معاً ؟ هل يمكن أن ندعى أن الرحلة لا  
وجهة لها لأنها هي نفسها المقصد والغاية ؟! هل يمكن أن نرى العلاقة بين كل من  
السفينة و البحر ، أو الذات والناقة ، أو الناقة والسفينة ، أو الذات والمدوح المقصود  
بالتفيا - محاولات النفس لإقامة علاقة بنفسها ؟ هل يعد الموج - إذن - حركة ذاتية أو  
داخلية شأن الحركة في القصيدة كلها ؟

الرحلة في مهمه قذف والصلاة موصولة (على عجل) والماء مفتقد وليس ثمة إلا  
التيتم للتطهر ، ولكن صلاة الغرض مقصود: كصلاة الكسف ، وأطول ما يكون !  
والأذان كذلك فعل طبيعي معتاد ولم يجهر به خوفاً وخشياً . ما علاقة الرحلة بالحج  
وجمع جمار الرمي وقصر المدة من الليل إلى الصباح ؟ وما علاقتها برحلة العودة ؟ وما  
دلالة الوضع والإيضاع والإمضاء والإزماع في هذا السياق ؟ أئمة شيء تريد الرحلة  
التطهر منه ؟ هل كانت الرحلة لاحتراش الضب والنفس معاً ؟ لذلك قال في فتياه  
(مؤدب النفس) ؟ ما دلالة الحذر أو الرهب الباطني وما طبيعة تلك الرحلة الطويلة  
القصيرة (سارت فزارت ) ، المتحركة الساكنة ؟ وما دلالة القبض والبسط أو جمع جمار  
الرمي و تفريقها ؟ لم لم يكتمل كل شيء الصلاة والوضوء والأذان .. ؟

وجهة الرحلة محددة منذ البداية (إلى الرئيس) ولكنها مجهولة كذلك ولا تتقدم  
السفينة ، السفينة تتعاورها الرياح من كل جانب والأمواج المتدافعة . فهامي طبيعة  
الرحلة وطبيعة الموقف النفسي وحركة السفينة الرائعة ، في بحر هائج تحت حندس  
الخطب ولا دليل .

القصيدة طواف بالبيت وصلاة طالت على قصرها ، في مهمه بعيد الورد لماع ، ما دلالة وصل الصلاة على عجل مع ورد بعيد لماع ، وطول الصلاة مقصورة ؟ وما هذا السراب الذي وصلت فيه الصلاة على عجل ، وما تلك الصلاة التي تقصر فتطول ؟ وما علاقة (ورد بعيد لماع) بـ (مهمه) و (شعشاع) و(رب) بـ (كم) ؟ ثمة شيء من فقد السيطرة على قوة لا تحول عن مسارها ، شيء دفع إلى البحث و الفتيا . فالوصل لا يتمكن من السراب والقصر لا يقصر بل تطول معه الصلاة ! ما علاقة صلاة الظهر والعصر بالنهار والسراب (بالشباب) ؟ وسرعته وخداعه وزيفه ؟ وما علاقة صلاة الكسف في مهمه واحتجاب الشمس بغياب ذلك النهار أو ذلك الشباب ومن ثم بالشيب ؟ أكان الشيب غياباً لشمس ما ؟ أما للشيب من شمس مشعشة تضيء صحراء النفس ، وتحول دون كسوف الشمس ؟

إن سطوع الشمس مرتبط بسطوع النفس والحجاب ظلمتها ونضجها ونموها ، من الخداع والعجل والتزق إلى الحقيقة والمهل والأناة . ما علاقة (بعيد الورد لماع) بـ (كل طويل الرمح خداع) ؟ الجمار الرمي التي تجمع (ليلاً) وتلقى في قاع البحر وتدفن في قمقم صباحاً علاقة بآمال تجمع في الشباب وتبدها شمس الشيب والوعي ؟ أليس ذلك تطهراً من الجمار وحرها ؟ أكانت الجمار التي تجمع ليلاً حصيلة حاطب ليل لم تصف بعد ؟ أكان الصباح اختباراً لتلك الجمار الضائعة ؟

ألا يمكن أن نعد أسف الشاعر على الأيام والساع والسنين وعلى ما تقضي في غير جوار العراق ورجاله - أسفاً على الشباب التزق الخداع ، أو أسفاً على الوجود والحياة بأسرها ، وحسرة على الاغترار بالسراب ؟ ألا يشبه الشيب بأي حامد / المددوح أو بالفتيا المقصود بها ؟ لماذا كانت الهدية / القصيدة ليست (لإسراف وإطماع) الآن الشباب كان سراياً وغروراً وسرفاً ؟ تشكل الفتيا في مفهوم الحياة والشيب والنضج والوعي والمودة التي بدت مضاعفة ، والعفة عن مصادقة لثام الناس واحترام العرف فلا يميز خرق لإجماع ، والزهد والبعد عن الجاه والنشب أو التخفيف (والتطهر) من أعباء الدنيا والرسول الذي لا يبعث إلا لبيتاع جميل الود ؛ لذا قال :

- كأن كل جواب أنت ذاكره شنف يناط بأذن السامع الواعي

فالوعي هو مناط تلقي الوعي بحقيقة الحياة والنفس . هل استطاعت النفس أن تنمو عبر الصراع في القصيدة وأن تصل إلى شمس الوعي ونور الحكمة ورسوخها ؟ هل التأم طرفا الصراع ؟ هل سمت الروح وتغلبت على الأعراض وتظهرت من النزق ووصلت إلى الوضع بعد الإيضاح وانصلت من الظلام إلى الصباح فانصاعت ؟ هكذا نستطيع الآن أن نفهم السؤال في البيت الأول في ظل هذا السياق، الوضع لم يكن إلا بعد إيضاح . والسؤال محاولة لمراجعة الطريق والإمضاء والإزماع جميعاً . السؤال باب الدخول إلى أعماق الوعي ، وهو نفسه باب الخروج من عممة الليل وشبهه الريب وهو المصباح الذي يبدد ظلمة النفس ويضيء أعطاف الروح ، ويكشف حقيقة الحياة والموت معاً .

قال في إجابة الشريف العلوي عن قصيدة أولها :

- بعادك أسهر الجفن القريحا ودارك لا تنسي إلا نزوحا

- قصيدة من أربع حركات : حركة البرق من البيت الأول إلى الحادي عشر وحركة الخيل من البيت الثاني عشر إلى الخامس والعشرين ، وحركة الناقة من البيت السادس والعشرين إلى السادس والثلاثين ، وحركة المدوح من البيت السابع والثلاثين حتى الخامس والخمسين .

وتتكون حركة البرق من ثلاث جمل طويلة ، الأولى من البيت الأول إلى الثالث وتصور الجزع من البرق في ثلاث صور (سرى فأتى الحمى نضوا طريحا) (كما أغفى الفتى ..) (إذا ما احتاج ..) وكلها تصور إعياء البرق في سراه ووهنه . ومن ثم تأتي الجملة الثانية من البيت الرابع إلى الثامن بتأكيد السفاه والغبي لمن يهيم جداً بهذا البرق وتلك الجنوب ، ولا ندرى ما ذلك البرق ولا تلك الجنوب وما يؤمل منهما . ولكن تنتهي الجملة الثانية بما يكشف شيئاً غير يسير من توجه الدلالة وتحديد بعض أبعاد الموقف إذ يذكر إمراض المواعد ، والسقم في علاقتهما بالإعياء ، ومن ثم تفسير السفاه والغبي . والأمر لم يزل غامضاً بعد ، فأى سقم وأي مواعد ؟

وتبدأ الحركة الثانية حركة الخيل بالحديث إلى الشريف بوصفه نموذجاً صالحاً للبطولة ولكونه ذا حزم وعزم ، ولإعداده العدة واهتمامه واعتناقه بالخيل . والحركة مهمة بالخيل وتصويره ، فهو رمز البطولة وآلة المجد . وتنتهي هذه الحركة بتأسيس بطولة الشريف العلوي على عدة معاور ، فهو فارس ذو مكانة ومجد وحسب ونسب .. ولذا كانت الحركة الثالثة معنية بالرحلة إلى هذا الممدوح/ البطل ، فكانت حركة الناقة في هذا الموضع . يقول: <sup>(1)</sup>

- |                             |                          |
|-----------------------------|--------------------------|
| 26- فيا بن محمد والمجد رزق  | بقدرك سدت لا قدر أتيجا   |
| 27- وما فقد الحسين ولا عليا | ولي هدى رآك له نصيحا     |
| 28- إليك بن الرسول حثن جدا  | ولم يحدين من عجل سريحا   |
| 29- هممن بدلجة وخشين جناحا  | فبتنا فوق أرحلها جنوحا   |
| 30- أشحن وقد أقمن على وفاز  | ثلاث حنادس يرعين شيحا    |
| 31- دجى تتشابه الأشباح فيه  | فيجهل جنسها حتى يصيحا    |
| 32- فمر العام لم تطرق أنيسا | بدارهم ولم تسمع نبوحا    |
| 33- ولا عبثت بعشب في ربيع   | ولا وردت على ظمأ نضيحا   |
| 34- فأقسم ما طيور الجوسحما  | كهن ولا نعام الدوروحا    |
| 35- ودون لقائك الهضبات شما  | تفوت الطرف والفلوات فيحا |
| 36- فجاءك كلها بالروح فردا  | وقدسرتنا به جسدا وروحا   |

تمثل حركة الناقة توجهها نحو الممدوح ، كما تصور الصعاب والعقبات التي تكابدها الإبل في طريقها الطويل ورحلتها الشاقة إليه ، والهضبات والفلوات التي تحول دون لقائه . كذلك تصور مدى الشوق إليه ، وطول الانتظار . فاللقاء به عزيز ؛ فلا يكون إلا بالروح ، ثم تنتقل الحركة الرابعة إلى الممدوح مباشرة وتعيد مآثره . يقول :

(1) شروح سقط الزند : 1 / 259 .

- 37- تبوح بفضلك الدنيا لتحظى  
38- وما للمسك في أن فاح حظ  
39- فقد بلغ الضراح وساكنيه  
40- يغيض إليك غور الماء شوقا  
41- ولو مرت بخيلك هجن خيل  
42- ولو رفعت سروجك في ظلام  
43- ولو سمعت كلامك بزل شول  
44- وقد شرفنتي ورفعت ذكري  
45- أجل ولو أن علم الغيب عندي  
46- وكون جوابه في الوزن ذنب  
47- وذلك أن شعرك طال شعري  
48- ومن لم يستطع أعلام رضوى  
49- شققت البحر من أدب وفهم  
50- لعبت بسحرنا والشعر سحر  
51- فلو صح التناسخ كنت موسى  
52- ويوشع رد يوحا بعض يوم  
53- فنال محبك الدارين فوزا  
54- ومن لم يأت دارك مستفيدا  
55- فكن في الملك يا خير البرايا
- بذاك وأنت تكره أن تبوحا  
ولكن حظنا في أن يفوحا  
نشاك وزار من سكن الضريحا  
ويظهر نفسه حتى يسبحا  
وهبن لعجمها نسبا فصيحا  
على بهم جعلن لها وضوحا  
لعاد هدير بازلها فحيحا  
به وألنتني الحظ الربيحا  
لقلت أفدتني أجلا فسيحا  
ولكن لم تزل مولى صفوحا  
فما نلت النسيب ولا المديحا  
لينزل بعضها نزل السفوحا  
وغرق فكرك الفكر الطموحا  
منه توبتنا النصوحا  
وكان أبوك إسحاق الديحيا  
وأنت متى سفرت رددت يوحا  
وذاق عدوك الموت المريحا  
أناها في عفاتك مستميحا  
سليمانا وكن في العمر نوحا

تبدو كل حركة تسلم إلى تاليتها في يسر وسهولة . ولكن ثمة تساؤلات تثيرها القصيدة بما تقيمه من علاقات ضمنية خفية بين حركة البرق الأساسية والحركات الأخرى . فالقصيدة تثير غلالة شفيفة من الشكوك حول البطولة التي تؤسسها وجدواها ، وتلك الشكوك أضواء خافتة لا تبدو جلية ، فالرؤية في حركة البرق يمكنها أن توجه مجموعة من المبالغات في هذه القصيدة مثل قوله في البيت:

الا تنطوي القصيدة على مفارقة ، بأن يتبرك باسم الممدوح العلوي وأن يوالي الفتوح ملك هزيم كتب اسمه على رايته في حين أن المجتمع مازال يعاني من البطش على نحو ما جاء في حركة البرق . بل ربما قلنا إن هناك سخيرية لا من الممدوح بل من هذا الملك الهزيل الذي لا يملك إلا أن يرفع رايات الممدوح ولا يملك أن يغير صفوفه وينظمها بما يجلب النصر ، ليس التغيير نابعاً من الداخل، التغيير طارئ من الخارج ، ومن ثم فالقصيدة تسخر من الـ (لمحن) أليست القصيدة ، في غير حركة البرق ، ترفع رايات الممدوح ؟ ولعل الاستنكار في نهاية حركة البرق واشتباه العناء بالكاء - كان إيذاناً بهذه المفارقة الساخرة . ليس من السهل أن نقبل مبالغات أبي العلاء قبلاً ساذجا ، أبو العلاء أدهى مما يظن بكثير ، ولا يقدم على مثل هذه المبالغات من أجل ما يدعى بالمدح ، إنه ثمن زهيد جداً ، لا يوفي الشعر حقه . فمن السرف أن نكتفي بالنظر إلى مبالغات أبي العلاء نظرة يسيرة دون محاولة لفهمها وتأويلها .

للرحلة في حركة الناقة طابع خاص ، فالرحلة خيالية أكثر منها واقعية ، فتبدأ بجثثن جداً أو شوقاً . وعلى الرغم من هذا الحث وذاك الجهد (لم يحذين من عجل سريحة) فالأثر ليس مادياً . كما أن اللقاء في نهاية الرحلة لم يكن بالجسم والروح ، وإنما كان بالروح فحسب . ليس اللقاء بالروح مبالغة كما يظن . وحال الإبل كحال الفرس (على الأين المكرر مستريحاً) وهي حال تشي بفقد الوقاية . السريح : وقاية من الحفاء أو علاج منه . الرحلة - إذن - أو الإبل تسير بلا تخطيط أو استعداد أو احتياط . لعل هذه الحال تنم عن إصرار ورغبة ملحاح أو قوة . ولعلها أيضاً تنم عن اللامبالاة أو انعدام القدرة على التأثر والشعور بالأين أو الأزمة . فالراحة هنا مفهوم ملتبس ، الراحة لا تعني القوة ، الراحة هنا هي لا تفاعل مع الألم أو التعب . الراحة جمود وتصلب إزاء ما يواجهه الذات ، أو إزاء المحنة . الراحة استسلام وتراخ .

تبرز في الأبيات الثلاثة التالية دلالة التردد والخشية والتراجع (هممن بدلجة وخشين) والحذر والخوف (أشحن) والجهل (فيجهل) . فالخشية والحذر والجهل نتيجة الصراع مع ظلمة ليل مطبق (جنحاً - ثلاث حنادس - دجى تتشابه الأشباح فيه) ثمة حث ، وثمة ريب وتشكك واشتباہ ، ثمة خشية من مخاطر الرحلة. تشكل حركة الناقه جدلاً بين الإقبال على الرحلة والإدبار عنها ، وتوازي جدلية الإقبال والإدبار في حركة الناقه ، جدلية أخرى بين الإفراط والتفريط في حركة الخيل (فرط رى) و(شح) . فثمة حركة نفور وعدم اتلاف بين الجسم وغذاؤه (أباه) (فمج) ربما كان هذا عرض من أعراض المرض أو من أعراض الليل ، ومظهراً من مظاهر الاختلاف والتباين بين الليل / الفرس ، والصبح / اللين. فلا يمتزجان ولا يختلطان . وتعد القصيدة محاولة جاهدة للجمع بينهما ، أو إقامة حوار جدلي بين المختلفات . يبرز الاختلاف كما يبرز صعوبة التشابه والاتلاف أو الالتقاء بينهما .

وعلى الرغم من حث الإبل طالت الرحلة ، فمر عام بين إقبال وإدبار وحجبت عن الأنيس وحركة الحياة ؛ فلا عشب ولا ربيع ولا ربيع . الرحلة تواجه متاهة ، والإبل طيور هائمة بين سماوات وقلوات تسعى إلى اللقاء ، ولكن الرحلة لم تكن لتحظى باللقاء دون عقبات كثيرة صعب تحطيتها ، فلا شك أن الثمن باهظ من أجل اللقاء . ما حقيقة تلك الرحلة ؟ ما حقيقة تلك المتاهة ؟ وإلى أي جهة تتول ؟ أهى رحلة الموت ، رحلة الحياة إلى الموت ؟ ما تلك الحنادس الثلاث - إذن - وما تلك الوفاز ؟ وما تلك الدجى ؟ ما هذا اللقاء بالروح ؟

لعلنا نذكر هنا الرؤية العلائية في (عللاني) وهى في الممدوح نفسه ؛ لشر (الهندس والبيد) و(حومة الدجى) ألم نزل مع أبى العلاء في حومة الدجى ؟ عما تبحث الذات في تلك الرحلة الشاقة المتكررة كأنها قدر لا مهرب منه ولا محيص عنه ؟ وأي عين ترمقها عيون الركاب ؟ ما ذلك السراب الذي يداعب النفس الإنسانية في رحلتها نحو المجهول ؟

حقيقة إن "الشاعر يتحدث من خلال العرضي عن الجوهرى ، ومن خلال المديح والهجاء والثناء عن مشكلات الإنسان التي يواجهها باستمرار على الرغم من اختلاف الزمن والثقافة"<sup>(1)</sup> . ولذا فإن المديح ينطوي على هموم الإنسان أيضاً . "هذا الرضا والإشراق يخفي في داخله بعض ملامح التوتر والظلام"<sup>(2)</sup> . ومن ثم كان المديح في الشعر الجاهلي "محاولة لاشعورية من مجتمع كان يعج بالصراع النفسي والجدل الروحي ، لإعادة الأمور إلى نصابها مرة أخرى"<sup>(3)</sup> . أي إعادة الخصب والإشراق إلى وجه الحياة مرة أخرى ، وقصائد المديح في سقط الزند لدى أبي العلاء الذي فهم الموقف الجاهلي واستوعبه<sup>(4)</sup> ، ليست بمبعدة عن قضايا الإنسان وهموم المجتمع التي تعتمل في أعماقه وتشكل رؤيته حتى في المديح فهو أنسب الموضوعات للحديث عما يثقل كاهل الإنسان من قضايا المجتمع وهمومه وصراعاته وسلبياته لأن الموت هو الوجه الآخر للحياة ، والإشراق في رؤية الشاعر ظاهر يخفي وجه الحقيقة وحقيقة الظلام والتوتر ، فالفارقة هي جوهر الرؤية ، وهي الوسيلة الأكثر عمقاً وتجذراً لسبر أغوار الموقف وتجسيد الشرخ العميق داخل الذات ، عبر جدلية الصراع بين القصيدة والواقع .

تترامى أمواج الرحلة متتابعة إلى شاطئ الجهول ؛ فتنحسر عنه متراجعة، بيد أنها تظل تحمل قبساً من الحقيقة ومن شوق إليه فلا تكف عن محاولة اقتحامه والالتحسس عنه في حركة لامتناهية مثله .

للرحلة - إذن - طابع أسطوري يتبدى في القصيدة وفي حركة الممدوح، فالرحلة أسطورية وكذلك الممدوح ، بالإضافة إلى ما لهما من إطار مألوف ، فضله ليس مقصوراً على الأحياء من الناس بل يصل إلى أهل السماء وأهل القبور، كما يصل إلى أهل الدنيا

(1) د.مصطفى ناصف : دراسة الأدب العربي ، ص 232 .

(2) د.مصطفى ناصف : اللغة والبلاغة والميلاد الجديد : ص 195 .

(3) د.ثناء أنس الوجود : رمز الماء في الأدب الجاهلي ، مكتبة الشباب 1986 ، ص 187 .

(4) راجع : د.حسن البنا : جماليات الزمن في الشعر .. ص 123 .

(الضراح - الضريح) ويفيض إليه الماء الغائر شوقاً ، وله قدرة خارقة ولكلامه كذلك ، ففيه شرف وحياة ، ومن ثم كان شبهه بالحسين ثم علي ثم موسى ثم يوشع ثم سليمان ثم نوح . ثمة قدسية شمولية ، ثمة رهب يكتنف الرغبة .

ويجذب البيت الثاني والخمسون الانتباه بالشمس ، فتنة أبي العلاء . هل كان المدوح مرة أخرى رمزاً للشمس وللحقيقة : فكانت له بعض صفات الأنبياء وكانت له تلك القدرات الخارقة ، والمكانة السامقة ، والصفات الأسطورية ، كما كان من قبل شمساً مضئيةً (أنت كالشمس في الضياء) ؟

ما وجه (واحداً) في البيت الثاني عشر الذي يأتي عقب نهاية رؤية درامية في حركة البرق ؟ تأتي كلمة واحد كحركة ارتداد للذات على نفسها (رأيتك واحداً) هنا وفي أعلى درجات الوعي بالمأساة تنكشف للذات حركتها وتفردتها ، فيتحد الفاعل والمفعول الرائي والمرئي ، ويصل الصراع الدرامي في هذه الرؤية عبر الوعي الحاد بالتجربة إلى ذروته ؛ فتعبر الذات عنه جوهر المحنة التي تواجهها والصراع بين العزم والحزم (أبرحت عزمًا) و(مثلك من رأى الرأي النجيجا) ثمة مفارقة أساسية تؤكد مدى التباين والانقسام داخل الذات ، الذات تعاني الفقد وترى الصواب ولكنها لا تستطيع أن تمضيه . فما ركوب الليل ؟ وما الفرس الكريم ؟

ويسري في القصيدة على مدى حركة البرق أو الخيل أو الناقة أو المدوح/ النموذج جدل وحوار عميقان ، ويجسد هذه الحركة إيقاع المعنى على المستوى الرمزي وتشابكاته وتحولاته . ويعضد ذلك مظاهر صوتية كثيرة وثرية مثل : التصريع في البيت الأول : (مليحا - طليحا) والربط الصوتي والدلالي بين الذات والموضوع في (الاح - مليحا - طليحا) . وفي الجناس (لمح - لموحا) وعلاقته بالدلالة وتأكيدها بل وإنتاج جانب منها . فاللمح فعل الذات وهو غي ، لذا كان الموضوع كذلك لا يثبت ضوءه فهو متغير ويعيد . وكذلك الطباق والمفارقة في (سقما صحيحا) ودلالة التوتر واليأس الصرف ، وفي (أقام - مموا / فتنا - نغم / تغني - ينوح / الأين - مستريحا / شحيحا - فرط ري / أحمي -

أييها / الحقيـب - النطـيـحا / بوارحا - سنيـحا / همـن - خشين / وردت - ظمأ / هجن ،  
لعجمها - نسبا فصيحـا / ظلام - وضوحا / أعلام رضوى - السفوحا / محبـك - عدوك / لم  
يات - أتاها / مستفيدا - مستميحـا .. ) وكذلك في الجناس مع التطبيق أو بدونه ( تدر -  
تدر / القراح - القريحا / أجلا - أجلا ) وأيضا التكرار في (الروح - روحا / تبوح - تبوحا  
/ فاح - يفوح / حظ - حظنا / بزل - بازها / شعرك - شعري / فكرك - الفكر / بسحرنا -  
سحر / رد يوحا - رددت يوحا.. ) .

كل هذه الطاقات الصوتية الدلالية من طباق وجناس وتكرار وتواز وغيرها ترفد  
القصيدة إيقاعها ، وتشكل بعض جمالياتها ، فهناك القافية بكل ما تمثله من ثراء إيقاعي  
عبر توازياتها الصوتية ، وتشابكاتها الدلالية . ودون الخوض في تحليل مفصل لدور  
القافية الإيقاعي والدلالي في هذه القصيدة ، أرى أن القافية مرتبطة بالقصيدة أشد  
الارتباط . وتمثل نبعاً ثراً للإيقاع كما تمثل أيضاً مركزاً أو بؤرة دلالية في أحيان كثيرة  
بحكم موقعها المتميز ، إن على مستوى الدلالة أو الإيقاع . وهل ينفصل أحدهما عن  
الأخر ؟

## المبحث الثاني الغوابر

### 1. البنية الرمزية للدرع :

تشكل الدرع رمزاً فنياً ذا بنية رمزية متكاملة ، أحاول هنا أن أرصد أهم الملامح التصويرية لتلك البنية ، فمما يشيع في الدرعيات : علاقتها بالماء والصفاء والحياة والسراب وعيون الجراد والقوة والمنعة وارتباطها الوثيق بالسيوف والرماح...، وأسماء الأعلام والحياة والموت فهي مجمع التناقض . ويلح أبو العلاء على هذه الملامح التي تتجاوب أصداؤها في الدرعيات كلها . ولنبدأ بكونها حومة المتناقضات ، فهذا شيء أساسي في بنيتها ويوجد في كل ملامحها كما سنرى .

وهنا أهتم بنص أبي العلاء على ذلك التناقض . فهي خشنة لينة :

8- وقد أغدو بها قضاء زغفا وتكفيني المهابة ما كفتني (ق75)

وهي لباس من الحديد في مقابل لباس الحرير :

35- إن في الدرع ملبد الغاب مدكد مت فكوني في الدرع ظيبا غريبا

36- غير أني لبست منها حديدا واستجادت من اللباس حريرا

التوتر بين الحديد والحرير بين الأسد والظبي . وهي روضة ولكنها روضة ذات

خصوصية فهي أم الوغى وابنة اللظى كذلك :

8- وما هي إلا روضة سدك بها ذباب حسام في السوابغ شادي (ق76)

9- على أنها أم الوغى وابنة اللظى وأخت الظبا في كل يوم جلاذ

14- أرضعتها أم الشرار فماتعد رف إلا أنيسة الليل ظيرا (ق80)

16- وهي أخت الجراز تدعو ويدعو والدا ما استعان إلا سعيرو

22- وتخال الشفار في وردها ال كفار زاروا من الجحيم شفيرا

الدرع روض بها الحسام سدك . ثمة ملازمة بين الدرع والحسام والقيين، لا تفوت المتأمل ، فهي أم الوغى والنار أمها ومرضعتها . النار تغذو الدرع وتزكيها وتطهرها . النار أصل في الدرع والسيف ، وهما أس الحرب . الدرع - إذن - روض الجحيم وجحيم الروض فهي نار وماء :

- 21- فلا قدم الأيام ألبس غلفقا جباها ولكن نارقين بها صال (ق81)  
 22- وتشبي شباة الرمح منها كأنها شبا وهي لينا من ترائب مكسال  
 27- عذبتها الهالكى صانها في جاحم من وقوده ضرم (ق83)  
 28- ينفر عنها ضب العزاة كما يهاب تقعا من بارد شبم

الدرع ماء لا يأسن على طول العهد ؛ فلا تصدا ، وهي نار يصلى بها قينها . ولتأمل خصوصية الإضافة والتداخل في التركيب اللغوي : (نار قين بها صال) ، كذلك قوله : (عذبتها الهالكى) فهو يعذبها في (جاحم من وقوده ضرم) كما يصلى بها ! الدرع حرب والصراع محتم بين الدرع وقينها . الدرع نار متأججة وماء ينفر عنه الضب . فهل يعد نفور الضب عنها شكاً في مائها الزائف ويقينها المشكوك ؟  
 الدرع كذلك مرة حلوة :

- 12- فلا يطمعك في الغمرات وردي فإني ربة المر الأجاج (ق77)  
 30- من المادي كالآذي أردى عواسل غير طيبة المجاج  
 31- لا مرة الطعم ولا ملحة وكيف بالذوق ولم تعجم (ق78)

حركة الإثبات والنفي حركة بندولية أساسية في بنية الدرع ، الدرع كذلك دائمة الحركة ؛ فلا تقر ولا تثبت ، تنطوي الدرعات على محاولة مضنية لملاحقة تلك الحركة الدعوب ، واكتناه حقيقة تلك الدرع المتلونة ، وسبر أغوارها ، ولكنها لم تعجم !  
 كذلك فإن الدرع تجمع بين الحر والبرد :

- 5- تولي الأيادي قرا حين تلمسها كأن ناجرها في اللمس شببان (ق97)  
 5- أجيدت بمريخية النار فاغتندى لها زحلي في الفرائز قارس (ق98)

تجمع الدرع بين النار والماء كما السيف ، والحر والبرد وطباع زحل إلى طباع المريخ ،  
والصمت إلى الكلام ، فهي صموت ثموم ، والحركة في السكون ؛

5- وكانما رعب السيول تسرعت فمضت وقر الصفو من دفاعها (ق100)

الدرع ظاهرها مضيء لامع براق ساكن كأنه ماء وبرد .. بيد أن باطنها على غير  
ذلك ، فضوؤها يثني السمراء مطفأة السراج ، وماؤها سراب لا يروي من ظمأ ،  
وسكونها من شدة الحركة ، فهي بقية من سيل ، ويرده نار ..؛

6- سبرية في مسها بحرية بمياهها شمسية بشعاعها(ق100)

الدرع حياة وموت ، وحياتها موت ، ويقينها مشكوك :

6- آلى مضاعفها على مجتابها ألا يمور له دم مسفوك (ق89)

الدم مسفوك فكيف صيانته ؟ الدرع حماية وصيانة ولكن : (7- .. وما تغني عن القدر  
الأكنة ق103) ، فالحوادث كائنات . الدرع تارة هي الصيانة والحماية ، وتارة يقينها  
مشكوك ، تارة يلبسها ويضعها أخرى :

26- والفقير الوقير من هو مختار ر عليها من السوام وقيرا (ق80)

27- أشعريها بديل كرتها المسك ك إذا ما الدعاء صار كريبا

28- واصبحها البان الدكي فما أر ضى لعرضي من السليط ثجيرا

29- هي حصني يوم الهياج فعديها ها عن الآس واستعدى العبيرا

2- وذاك لباس ليس يجتابه الفتى فيختلف الأهواء في بعد شأوه (ق90)

5- فصالب لم يوفق في إصابته ومخطئ لك محروس على الخطأ (ق105)

6- كان حسان ذا شعبين كنت له وقاية في زمان القحط والوبأ

7- فما وقيت وقد جاءته مبيته وأي نفس بذاك الخطب لم تجأ

8- لو كنت غرسا بناب الحجر واشتملت بذلك الغرس لم تعقر ولم تسأ

الدرع تصنع المجد ، ولكنها لا تقي من الموت ؛ وهل ينفع الثوب الرقيق لدى الحرب ؟  
تنطوي الأبيات - بل الدرعات كلها - على اشتباه عظيم ، ففي هذه الأبيات ريب في

حماية الدرع ووقايتها ولتأمل (فصائب لم يوفق في إصابته) و(وغطى لك محروس على الخطأ) فما علاقة الإصابة بالخطأ بالخطب؟ ما علاقة (كنت وقاية) بـ (فما وقيت)؟ وما دلالة (لو) في هذا السياق؟! ها هي إحدى لحظات الوعي بالحقيقة:

23- لا يخلبنيك بارق متلمع إن البروق تخون في تلماعها (ق100)

الدرع أغراس التاج وهي أغراس المنون:

7- وتخال أغراس المنون أمت بها عند الحوادث أمهات رباعها (ق100)

الدرع تمنع ولا تمنع، تقي ولا تقي، ولكنها تبقى جديدة على قدمها:

18- غبرت لتبع الهمام ورأيه أن البقاء يكون من أبناعها (ق100)

6- ولم يلق في روع لها خوف صارم ففاز بطهر من تقي الموت روعها (ق101)

الدرع اشتباه عظيم وحومة لكل الصفات والأحوال والأطوار. التناقض والصراع الجدلّي أساس الدرعات، فلا حاجة إلى استقصاء ذلك.

ولتر إلى علاقة الدرع الوثيقة بالماء غديراً وسيلاً ومزناً..

قميصا يحاكي الماء إن لم يساوه (ق 90)

من صيف والقرم ملء لفاعها (ق100)

نظير الكرفي ديم وهتن (ق75)

من المزن يعلى ماؤها برماد (ق76)

من فجاءت بريهن صبيرا (ق80)

لحوبة خربها من سهيل (ق96)

كانها بقية من السيل (ق79)

1- على أمم أني رأيتك لابسا

32- بيضاء من مطر الشتاء ولم نقل

9- وتحتي الكر إدماجاً وفوقي

3- رهنت قميصي عنده وهو فضلة

24- مثل قطع الصبير زينها القيب

12- كأنها كسف سماء هوى

1- من يشتريها وهي قضاء الدليل

الدرع ماء أو تحاكيه، فهي غدِير وسحاب وماء ومطر وسيل..

في ناضب الماء غير ملتطم! (ق83)

مثل غدِير الديمة المفعم (ق78)

5- وحوتها جانل على ظمأ

2- يحمل منها صاديا سابع

- 2- وثوبى أضاة إن شكا الظماء تحتها  
 3- كمفتسل أعلى جمادى ببارد  
 7- ترى المرء فيها يحمل الماء جامدا  
 7- لا يروعنك خدنها ظمأ الحرب  
 6- فليست بمحض ترتغيه مبادرا  
 18- إن يرها ظمآن في مهمه  
 13- وغرت عيون الوحش فاقتربت لها  
 كمي هياج فهو ظمآن سابع (ق91)  
 وما سجل ماء حين يفرغ سائح  
 وأما علاها مغفر فهو قاسم (ق98)  
 رويدا فقد حملت غديرا (ق80)  
 ولا بغدير تبغيه صوادي (ق76)  
 يسألك منها جرعة للفم (ق78)  
 صواد وباغي الورد منهن لاجس (ق98)

الماء - إذن - وهم وسراب غرار ، والدرع لا تحمي ولا تروي ، ولكن تغر من  
 يغالط نفسه ! فلا يصل إليها حابس الحكيم ولا أهل عز كلهم متشاوس ! لا الخضوع  
 ولا التغمسر ، ليس ثمة من ينال منها شيئا ! لماذا كان ماء الدرع من الدموع ولماذا يعلى  
 برماد ويطفو فوقه ريش لم يصم ؟ لماذا كان الماء جامدا ؟ ولماذا بقية من سيل ؟ وأي سيل  
 ذلك الذي انفصلت عنه فكر الصفو من دفاعها !

يتصل السراب بالماء اتصالاً وثيقاً ، وقد شاع في الدرعات . لا يكون السراب إلا  
 في القيط:

- 2- تعد سراب القيط والصيف والضحي  
 10- ألم تريها كالسراب لمعا  
 11- تغرفي القيط العيون خدعا  
 17- عادتها أرمها ظبا وقنا  
 18- تغرها غرة السراب نهى  
 19- أو عمل الكفر من يدين به  
 وجنح الدجى لو أنه كان جارياً (ق92)  
 (ق84)  
 من عهد عاد وأختها إرم (ق83)  
 في ناجري النهار محتدم  
 في البعث إبان مجمع الأمم

للسراب دلالة عميقة على الفقد ، فما علاقة الفقد بـ (النهي) بـ (ناجري النهار  
 محتدم) الدرعات ! إشراقه وعي إنساني يشقى بالدرع من فقد مروع .  
 الدرع سراب في القيط ، ولكنها كذلك تجري الآل في البرد والأفق غائم !

- 7- متى نثلت من عيبة يوم سبرة  
 12- أضاة يروم السمهري ورودها  
 24- كلائحة الباغي المضل رأى ضحى  
 25- جرور كما انسابت في الحزن حية  
 26- فإن تحك ثوب الصل من بعد خلعه
- وقد غيم أفق أرسلت جاري الآل (ق81)  
 فتشرقه منها بأبيض سلسال  
 شذا من سراب في مهامه أغفال  
 إلى السهل فرت غب دجن وتهطال  
 فقد كان من فرسانها صل أصلال

وهي سراب وليست بسراب فهي تقرب كلما اقتربت منها ، على عكس السراب إذ يبعد :

4- لاحت على غفلة كلائحة ال حمض تدنو إذا السراب نأى(ق104)

الدرع غرارة خادعة (غرت عيون الوحش) و(غرت قطا مران) :

- 4- آلية ليست تغر سوى القنا  
 10- أمن الفتى من عند معقد زره  
 11- بل تحسب العنقاء أو بنتا لها  
 21- مجت على الأرض الفزالية ريقها  
 22- غرت قطا مران حتى عاها  
 23- لا يخلبنك بارق متلمع  
 29- غرق الدبا في لجة لو نملة
- المرهفات بمكرها وخذاعها (ق100)  
 حتى على القدمين ريع وساعها  
 نبذت بها في الوكن يوم رجاعها  
 فأقام بين وهودها وتلاعها  
 طمعا وحتف النفس في أطماعها  
 إن البروق تخون في تلماعها  
 درجت بها لم يند بعض كراعها

وتتصل دلالة السراب على الخداع والمكر بالحية تارة والعنقاء أخرى . يقول :

14 - تحسبها تسعى وليست تسعى (ق84)

15- كما تسير في الكئيب الأفعى

وكذا بالثعلب :

- 22- رد شبا النبع وخيل نبعنا  
 23- جيب على ذي السمع يحكي السمعنا  
 24- في الطبع منها أن تظن طبعنا<sup>(1)</sup>  
 25- كالثغب أعطته السيول جزعا

(1) السمع : الصيت ، والسمع : ولد الذئب من الضبع ، والطبع : النهر .

- 3- قديمة النسيج ظن القوم أن عصا موسى كسسته قميصا وهي ثعبان (ق97)  
 4- أو ذات أيلة أعطته ملابسها لحولها وإنساء انشسر قربان له حية جادت بما الذمر لابس (ق98)  
 34- كان عصا موسى ليالي حولت

اهتم أبو العلاء كثيراً بالعودة إلى التراث والتواصل معه وتوظيفه ، من خلال التناص الرائع العميق معه . إذ كانت العودة متكررة إلى شخصيات بعينها، تجسد الضعف تارة والقوة أخرى ، فكانت الدرعيات حقلا واسعاً - في هذا الجانب- لتتناص فني ، يؤسس للأزمة ويبحث عن جذورها . كانت العودة إلى شخصيات من مثل : الأنبياء - عليهم السلام - عودة مرهفة ، تنطلق من موقف يعي حقيقة الوجود الإنساني وطبيعة الصراع . يقول :

- 5- وتلك أضاة صانها المرء تبسع  
 3- قديمة النسيج ظن القوم أن عصا  
 10- كان ابن آشى وحده قينالها  
 11- فمضى وخلفها تئل كأنما  
 8- لاقى بها طالوت في حربه  
 9- كانت لقابوس بني مندر  
 11- فلاح للناظف في سردها  
 12- لا تنتمي كبرا إلى سابر  
 61- كائنا للمنون هارون في البع  
 13- أمنتها نفسي علي فلم تم  
 33- وقميصا يبلي الفتى كل عام  
 4- رأتها العيون الزرق في كيد وائل  
 6- وشاها ابن آشى جاهدا في شبابه  
 9- ربيع حديد راع قيس بمثله  
 16- وما كان عن حوض الردى متقاعسا  
 وداود قين السابغات أذالها (ق95)  
 موسى كسسته قميصا وهي ثعبان (ق97)  
 إذ كل قين مفاضة مأفوك (ق89)  
 حبك السماء قنيرها المحبوك  
 جالوت صدر الزمن الأقدم (ق78)  
 إرث الملوك الشوس من جرهم  
 آثار داود ولم تظلم  
 لكن إليها سابر ينتمي  
 ث لموسى عون له ووزيرا (ق80)  
 س كذات الغوير أمنت قصيرا  
 وقميصاي أدركا أردشيرا  
 وعائنها في حرب ذبيان داحس (ق98)  
 إلى أن جلت عن مفرقيه الحنادس  
 ربيعا إلى أن خان والخل خالس  
 لو اجتابها يوم الهياج مقاعس

- 17- وأنعم قين فكره في قياسها  
 23- تنافس فيها المندران ولم يكن  
 24- حبتها ملوك الفرس نصراً وقومه  
 25- فما أدرمتها في الوقائع دارم  
 26- نأى عامر عنها وأصحاب مذهب  
 27- ولكنها كانت لقبوس عدة  
 41- سليمان من كل قتر يحوطها  
 2- أراك ذخراً سليمان وعدته  
 16- ولو أنها أضحت لكعب حقية  
 35- تنبأ داود بزم دريسها  
 36- تنافس فيها المندران ولم يرم  
 39- وخطى لها قبراً يضلون دونه  
 40- ولا تدفنيها الجهر بل دفن فاطم  
 26- رآه كهلان من معاقله  
 8- مثل وشي الوليد لانت وإن كا  
 19- غادرت في سفي سلامة والصم  
 20- وحسام ابن ظالم صاحب الحد
- بما أعجز النعمان حين يقاس  
 ليعتب في أمثالها من ينافس  
 ونالت بها العلياء لخم وفارس  
 ولا استافها في محبس الخين حابس  
 وما رب مياس بها الدهر مانس  
 تهم بها تحت الظلام القوابس  
 قدير نبت عنه الغواني الأوانس  
 لما تفكر في المغزى إلى سبأ (105)  
 لأروى الفتى النمري من غير تسأل (81)  
 فجاء بآى لم تشرف بإنزال  
 عليها ابن آشى غير ذكر بإجمال  
 كقبر لموسى ضله آل إسرائيل  
 ودفن ابن أروى لم يشيع بأعوال  
 في الحرب دون العبيد والخدم (ق83)  
 نت من الصنع مثل وشى حبيب (ق88)  
 صام والقرطبي ردا فى ندوب  
 ية سمته كان بالمعلوب

ربما كانت العودة إلى الماضي وحكاياته - لونا من ألوان التشبث بالوجود، والثبات في وجه الفناء أو الاندفاع نحو النهاية . وقد تكون العودة تأكيداً للمأساة واتصال الحاضر بالماضي ، فالماضي يقين ، والحاضر على منواله سيكون . العودة إلى الماضي وانتقاء نماذج بعينها ، لا يدعم الأزمة ، بل إن هذا الرجوع الملحاح - بعد تأمل - يعد محاولة للخروج من الأزمة ، أو تأملها من خلال الوعي بها ، أو معالجتها ، ومن هذه الزاوية أظن أن أبا العلاء لم يكن ضد الحياة أو طبيعتها ، وإنما كان يبحث عن حقيقة ذلك الوجود الإنساني

المتناقض ، ويكشف عنه في روعته ، من خلال المفارقة ، التي تشمل الوجود بثرائه وتناقضاته ، فالوجود لا يقوم إلا على المفارقة . تأسيس الأزمة - إذن - أحد طرق الخروج منها ، والتغلب عليها ، من خلال مواجهتها وتأملها . الحياة أكثر إشراقاً مع الوعي بحقيقتها .

لماذا الاهتمام بالدرع ؟ هذا سؤال يسير ، والإجابة عنه تقدم إشارة مهمة ، بيد أن الإجابة تحتاج إلى قراءة الدرعيات ، وهو ما حاولته ، فالدرع ملبس حرب، وهذا أمر مهم يستدعي طرفي الصراع ، السيوف والرماح وهي آلة حياة وآلة صيانة ، وحصانة ومنعة ووقاية وحماية في تلك الحرب ، ولكنها كذلك تتأبى على السيوف والرماح .. وهي بوصفها رمزاً فنيا لا يؤدي معناه الرمزي إلا مروراً بالمعاني المباشرة وأخذاً بأعناقها - كانت كل صفاتها ودلالاتها الأولية مستثمرة في أداء ما ترمز إليه ، وما تبنيه من دلالات شعرية، ولذلك كان من المهم أن نأخذ دلالات الشعر المباشرة في الحسبان بوصفها مرحلة أولية . كذلك لا يفهم ما ترمي إليه الدرعيات بمعزل عن البحث المضني في مشكل الزمان والحياة والإنسان ، وهو ثلاثي أساسي في بنية الدرع . فالمحور الأساسي هو الإنسان مغترباً أو منعزلاً في حرب الحياة ، فالتوتر النفسي و القلق الوجودي هما أساس الصراع الإنساني ومأساته في تلك الدرعيات ، أو ذلك الوعي الشعري .

فالدرع أياً كان ما ترمز إليه هي حياة وموت ، هي ماء ونار ، ظلمة ونور ، قوة وشدة وخشونة ، وضعف ولين ورقة ، يقينها مشكوك ، فهي سراب، وشباب وشيب ، صموت غموم ، حصان بغي ، مرة الطعم (ربة المر الأجاج) حلوة كالمأذي ، وهي ورد مأموم وهي أيضاً ورد غير مورود ، وينفر عنها الضب إذ يحسبها ماء ، هي أمن ورعب ، هي كل ذلك مجتمعاً .

الدرع وثيقة الارتباط بوجود الذات وكيونتها . فهي رمز للنفس الإنسانية في مغامرة الوجود القاسية وهي حصن نفس تحيا حرباً دائمة على مستويات مختلفة . الدرع صراع مع النفس ومع الأيام والدنيا . الدرع موقف نفسي يعيش على التناقض و المنازعة

والخصومة والصراع . فالدرع يجمع المتناقضات ، وهل تبعد حقيقة الإنسان أو الحياة عن التناقض ؟ تمثل الدرع مشقة الوعي ومأساة الإنسان . فالدرع اصطلاء بنار التناقض و الحرمان والشقاء ، وهي استراتيجية فارس يتبنى التناقض ومأساته في معرفته حقيقة الخدعة والوهم ، في عالم يقوم على الفقد والنقص الأساسي ! الدرع شرح عميق في جدار الروح ، وهي غربة أو اغتراب وانفصال او انشقاق . الدرع بحث عن الهوية وبحث عن الحقيقة والثمام الجرح .

الدرع وهم وسراب لا يكف الفارس عن السعي وراءه ومحاولة الكشف عن حقيقته ، وهي مع ذلك ليست فقدا كاملا بل هي فقد كبير من أجل كسب أكبر ، ولكن يظل الصراع محتدماً بين ما يفقده الإنسان وما يربحه ، الدارع لا يجد مفراً من التوحد الذي يصلى ناره ، ولا يجد مفراً من الصراع والخصومة والمنازلة التي لا يستطيع غيرها . الفارس لا يستطيع الرجوع وإن أراد ! ويشقى بالمواصلة ! هذه مأساة الإنسان الذي يعيش على الوعي بالتناقض و يلهث وراء السراب ويشقى بالوحدة والصراع ، يمنعه وعيه من متعة الحياة بلا خصومة . الدرع - إذن - استجارة من النار بالرمضاء ، من نار الحياة ، نار المجتمع ، نار .. برمضاء الوعي والاغتراب والحرمان والشقاء . أليست درعاً من نار ؟ هل يجتني الإنسان من مكر الأيام وخداعها بدرع من جنسها ؟ هل يجتني بنفسه من نفسه ؟ أم كان يرتاب في هذا الاحتماء و يسخر منه ؟ يرى الإنسان في الدرع عزة وستراً ووقاية من الرزايا ، وهو كذلك يقاسي هجيرها ، فالخسارة فادحة والتضحية كبيرة على عكس ما يظن الفارس نفسه الذي ألف سياج الحديد .

الدرع كذلك قدح زناد النفس وإشعال نارها ، فلا تكون النفس رائحة حقاً إلا بذلك القدح ، فأبو العلاء يجد نفسه إذ يسومها العذاب ، يجدها إذ يفقدها ، يعنفها فتنقاد له . من ثم فإن الدرع قدح وكشف وإثارة واحتلاب ونبش في أغوار النفس يمنعها لتعطيه ، ويقسو عليها لتحنو عليه لتعينه في حربه معها ومع المجتمع أو الحياة والأيام جميعا ، الدرع انفصال عن الجسد ورغباته ، وتعنيف بذلك الجسد ، ولكن ثم اتصال تسعى إلى تحقيقه

من وراء الاغتراب اتصال مع المثال وسمو على الحياة مغتربة .. الدرع تقوم على انفصال عميق وتسعى إلى تحقيق نصر أو اتصال على مستوى آخر ، ولذلك كانت مجمع المتناقضات ، فهي نار وماء ، عذاب ورحمة ، إيمان بشيء وكفر بأشياء ، يأس وأمل ، فقد ووجد معاً ، فالدرع تشكيل في مفهوم الحياة وحقيقتها ، وخبرة بها وسراياها وخداعها ، وبحث عنها في الوقت ذاته .

الدرع صراع داخلي وخارجي ، صراع مع النفس والعقل والمجتمع والأيام والزمان .. الدرع هي وفاق الشقاق ، هي حقيقة المتناقضات ، ربما نظلم الفارس إذا عددناه خاسراً أو كاسباً . فالخسارة فادحة لا شك والمكسب كذلك كبير ، ولكن ليس هذا هو المهم . المهم هو ذلك الصراع بين ما يفقده وما يخسره . ما الذي خسره وما الذي اكتسبه ؟ هنا يتكشف لنا وجه الحقيقة . إن ما خسره الإنسان لم يكن ليكسبه ! وما كسبه لم يكن ليكسبه بغير هذه الطريق ، ومن دون هذه الخسارة الفادحة وتلك الحرب الشعواء . الخسارة والمكسب - إذن - مدخل غير صالح . فمن الصعب ترجيح كفة على أخرى ، ولكن لتأمل هذه في ضوء تلك ، فلا يتفك ربح عن خسارة ، ولا خسارة عن ربح . بحث الفارس عن نفسه متوهجة عالية سامية متحررة من قيودها . ولكن المفارقة ما تزال تلاحقنا . فالإنسان لا يسمو ولا يتحرر من قيوده إلا بالوقوع في ربة قيود أخرى ينسجها هو بيده ! هذا أحد أوجه المأساة .

الصعود يلزمه سقوط ، التحرر يكتنفه تقيد ، هذه هي حقيقة الإنسان الذي لا ينفك عن حرته التي لا تنفك عن القيود ! فالوجد بفقد و الحرية بقيد ، والراحة من التعب بالتعب ، قرب طلب للراحة أعقب نصيباً ! الدرع لا تعرف حلاً وسطاً . لا توافق لديها . الدرع وعرة موحشة مليئة بالصعاب والعقبات ، وحمل النفس عليه يكون استجابة لدوافع أخرى أقوى وأشد قسوة . وما إن تحيط النار بالإنسان من كل جانب حتى يجد نفسه مدفوعاً إلى اختيار ما يآلفه . ألفه ما يختاره .

لا تنفصل إذن معاناة الإنسان وشقاؤه بالدرع التي تمسك بها معتزلاً - عن معاناته وشقاؤه بما فقدته ، فهذا يفسر ذلك وينطوي كل منهما على الآخر ، فمن الحمام إلى الحمام ومن سجن إلى سجن ، ومن شقاء بالمجتمع إلى شقاء بالعزلة عنه ، ومن شقاء بالحياة إلى شقاء بالوعي بها وفقدتها .. فالدرع تجمع بين آلام وهموم ومشقة وآمال وأحلام وانتصارات . وإن لم تتحقق فهي سراب وهم . وماء وحياة ، ونار وسجن ، الدرع هي حقيقة الوعي بتناقض الحقيقة .

ذلك هو الثوب / القناع الذي يعز به الإنسان من وجهة نظر الفارس الدارع ، الانفصال عن مجتمع مترد وأناس صغار وحياة ضيعة تنطوي على نقص مروع وضعف مزر . وخصام دهر لا يهادن أحداً . التطهر من أشياء كثيرة كان وراء لبس القناع ، لكن ، على الرغم من مظاهر القوة والشجاعة ، وتوهم النصر ، تنم عن مأساة حقيقية ، وأزمة روح وجدت أسيرة قيود حديدية ، فأرادت مواجهة قيودها بتوهم الخلاص من أعبائها والبحث عن عالم بلا قيود ، فوجدت نفسها خارج العالم ، ولكنها ما تزال داخل القيود ! كانت المواجهة بالتخفي من المواجهة أو الانسحاب ربما توهمنا أن الدارع يبالغ في توهم القيود، ولكن الحقيقة أن القيود قاسية بالفعل والأزمة عميقة ، وأنه كان يبحث عن تحرر منها وربما زعمنا أن الدرعات كلها لا تخرج عن تلك المحاولة أو المغامرة التي تقوم على صراع نفسي قاس ووحشة ورهق واغتراب . إنها مغامرة الوعي والكشف عن حقيقة العناء ، التي طالما أرقت الإنسان وروحه القلقة .

وعي النفس ووحشتها وعزلتها - إذن - محرك ومثير وباعث على تلك المغامرة الفذة ، ومحاولة تقييد الدرع الأبدية وتأملها واستكناه أعماقها وسبر أغوارها أو فضح حلقاتها . فالدرعات اشتغال على النفس وحقيقتها وعكوف على عالمها ، وتأمله واستبطانه ؛ فهي خبرة بالحياة وصعوباتها ، ولا تنفصل عن معالجة الحياة والمجتمع والأيام ، فهي انهماك بقضايا إنسانية ذاتية واجتماعية ووجودية . الدرع مساءلة جذرية ومراجعة شاملة لمفهوم الإنسان للحياة وحقيقتها ، وموقفه منها .

بين الدرع والسيوف والرماح والسهام . علاقة وطيدة . يقول :<sup>(1)</sup>

- وهي أخت الجراز تدعو ويدعو والدا ما استعان إلا سعيروا  
- وما هي إلا روضة سدك بها ذباب حسام في السوابغ شادي

تحاول السيوف والرماح والسهام اختراقها دون أن تنال منها شيئا فهي تكف ضرب  
الكماة في كل هييج . ثمة امتناع مؤرق أرهق الشاعر وأرهق سيوفه ورماحه وسهامه وكل  
محاولاته طائشة والدرع سر لا يفض ، والمحاولات لا تقف عند حد ، بل تظل الدرع  
غرارة :<sup>(2)</sup>

أضاعة حزن تجاد بالديم	12- كأنها والنصال تأخذها
فألريش طاف عليه لم يصم	13- أو منهل طافت الحمام به
بالرمح هزاعة من الخدم	16- ضاحكة بالسهم ساخرة
من عهد عاد وأختها إرم	17- عادتها أرمها ظبا وقنا
في ناجري النهار محتدم	18- تغرها غرة السراب نهى
ملقى وسحم النصال كالسحم	30- معابل الرمي عندها عبل
وهن شوكة القتاد و السلم	31- فهي فم العود بدهن به

هل كانت الدرع بحثاً عن حقيقة شيء ما ؟ هل كان الشاعر يستكشف ذلك السر  
بالسيف والرمح ؟ وما ذلك السر ؟ أهو النفس أم الحياة والدنيا والأيام ؟ وهل تختلف  
هذه الكلمات أو تفترق كثيراً ؟ تأمل تلك الصورة الرائعة :

12- كأنها والنصال تأخذها أضاعة حزن تجاد بالديم

عجيب أمر أبي العلاء وأمر الدرع والنصال .. عجيب ذلك الإنسان . قلت إن  
السيوف مسوقة إلى الدرع مشغوفة بها ، والدرع هنا كذلك تستمد وجودها وقوتها من

(1) شروح سقط الزند : 1784/4 ، 1716/4 .

(2) شروح سقط الزند : 1853/4

تلك الرماح . لا تضطرم النار إلا بهذا اللقاء وبالصرع والاصطدام . ربما يضوى الإنسان بغير هذا الصرع ، ربما لا تكون للدرع أو السيف قيمة بمعزل أحدهما عن الآخر ، أو بعيدة عن هذا الإصرار أو التحدي الرائع . تدرع أبو العلاء تارة ووضع السرد تارة ، شقي أبو العلاء بتلك الدرع ، دارعاً وحاسراً . كان يسائل النفس الإنسانية ويشعل النار في كل شيء ، كان يبني ولا يفتأ يهدم ما ابتناه ، كان يثبت ودائماً ما كان يرى النفي رائعاً ، كان يخط ويمحو ما خط في حيرة ووعي . وهذا شأن الوعي بالذات والمجتمع والحياة والحقيقة ، هذا شأن الوعي بالأزمة ، وربما كان كذلك أزمة الوعي .

## 2. مظاهر أزمة الروح:

بالنظر في حواشي الدرعيات وهي مما أثبتته أبو العلاء بنفسه - نستطيع أن نلمح عدة دلالات لمظاهر الأزمة أهمها دلالة الفقد ، فالعلاقة وطيدة بين استراتيجية الدرع كنظام للفروسية وبين الفقد ، فالدرع - كما سبق - وكما رأى الدكتور ناصف - <sup>(1)</sup> هو إنسان فقد العالم فبحث عن المجد في تحقيق الانتصار عن الزمان بالمنافسة والخصومة ، أو الاستعلاء عليه ، وهي تقوم أساساً على الخصومة والمنازعة والصرع مع الذات أو العالم . الدرع جزء من استراتيجية الحرب التي تكتمل بالسيف والرمح ..

وباللقاء نظرة سريعة على تلك العناوين نجد ذلك الصراع مع الفقد متجسداً؛ فمثلاً : قال على لسان رجل (ترك) لبس الدرع (لكبره) ، أو (رهن) درعه (فدفع) عنها ، أو ينادي على درع ، أو أسن (وضعف) عن لبس الدرع أو (سأل) أمه عن درع أبيه ، أو يخاطب امرأة (خانه) أبوها في درع ، أو نزل بامرأة (فساومته) درعها ، أو أعطى إبلاً و (أخذت منه) درع ، أو يذكر نساء (بمحتجن) إلى لبس الدرع ، أو على لسان امرأة توصي ابنتها بلبس الدرع ، (وترك) الزواج - بالدنيا - وقد وردت درعيتان فحسب على لسان الدرع تجملان دلالات القوة ، والثبات والصمود ، والتلون والانتصار على السيوف

(1) راجع : د. مصطفى ناصف : صوت الشاعر القديم ، ص 149 .

والرمح .. على الرغم من هجومهما الشرس فالهزيمة والفقد والعجز عن كشف حقيقة الروح أو ترويضها ، واليأس من قهرها - أساس موقف السيف الدرامي.

ولأن الدرع رمز يتشكل فيما يقلق بشأنه الشاعر أو الإنسان ويتأمل فيه ذلك القلق أو ذلك الهم - فهي (مشكل) . ولا يسهل فهمها بعيداً عن فكرة الصراع بين الإنسان والدهر (المعجز) في حرب الحياة ؛ فهي تشبه بالدهر والزمان والأيام والدنيا ، فكلها متداخلة في نسج تلك الدرع (المشكل) .

فالدرعيات تعج بالفاظ مثل (سليمى - ليبنى - ليس - أم دفر - الدهر - الزمان - الأيام - أخت نضلة - الحوادث - القدر - أغراس المنون) . ولا شك في علاقتها الوطيدة بالرؤية ، فهي محور الصراع دائماً ، وهي ما يمكن أن نستشفه من خلال بنية تلك الدرع العجيب.

بنية الدرع الدلالية - إذن - هي بنية عقل متوثب متسائل أرهقه التفكير والتأمل في (مشكل) الزمان والدهر والأيام وعلاقتها بالإنسان وحياته ؛ فهي تعبر عن شيء غامض لا يقر ولا يثبت ، شيء أرق عقل أبي العلاء وأرهق تفكيره . الدرعيات محاولة لكتابة هذا الشيء الغرار ، فهي - بحق - تنتمي إلى ما سماه د. مصطفى ناصف (الصم الخوالد)<sup>(1)</sup> . والتي سماها أبو العلاء (الغوابر) . ومن الطريف أن الشيء الغابر هو الشيء الباقي والماضي جميعاً .

الدرع - إذن - تنطوي على ذلك الشيء الغامض : المجد والصراع مع الزمان ، فالمجد صناعة الزمان<sup>(2)</sup> ، ولأن الزمان غادر كانت الدرع غديراً ، ولأن الأيام سراب كانت سراباً وحريراً ، ولأن الزمان لا يثبت كانت الدرع لا تثبت ولا تقرر ، فهي في حركة واضطراب مستمران ، (ربة الدمليج ذات النميل) ولأن الدهر غامض مقنع دارع ، فعلى الإنسان أن يتدرع بدرع كدرعه ، ولأن الدهر .. كانت الدرع ..

(1) راجع : د. مصطفى ناصف : صوت الشاعر القديم ، ص 151 .

(2) راجع المرجع السابق ، ص 148 .

الدرع - إذن - درع الذات ، وهي - كذلك - تجسيد للقرن / الدهر الكمي بها ،  
ومرآة لهذا القرن<sup>(1)</sup> الدرع فيها القرن وقرنه . الإنسان يشبه بالدهر ويحتمي منه به ، بين  
الدرع والكمي بها خصومة هي سجنه وهي قيده وهي شكته وحمايته منها جميعاً .

لا شك أن أبا العلاء يصوغ قلقه وهمه وصرعه مع الزمان في تلك الدرع، ويسائل  
الوجود الإنساني في علاقته بذلك الزمان من خلال خصومته ومطاولته ، أو الاعتراف به .  
ذلك هو مرادي من أن الدرع (مشكل) فهي لا تكشف عن الدارع بقدر ما تكشف عن  
القرن الذي تحمي منه ، وتشكله معاً ، أو الصراع الكامل فيها. يجيل إلي أن أبا العلاء  
كان يبحث في مشكل الوجود الإنساني ويسائل النفس من خلال تشكيله الفني لذلك  
التمثال الرائع (الدارع) ومن خلال بحثه الشاق المضني عن الحقيقة في صراعه مع من لا  
كفاء له ، من ثم تمثل الدرعيات نشاط نفس موحشة وحركة عقل أضناه البحث ،  
وعصف به التساؤل وعز عليه الشفاء منه ، فظل يداوي الداء بالداء .

### 3. الأزمة واللغة :

لا شك أن اللغة كيان ووجود متكامل أو هي تحمل وجود الإنسان بكل دقائقه  
ويشكلها الإنسان بروحه ويتشكل بها ؛ فإن اللغة الفنية مدخل أساسي على معرفة  
الإنسان والكشف عن تلك الروح وطواياها وآفاقها . فاللغة بنية إنسانية يمكن أن نصل  
من خلالها إلى ما يودعه فيها الإنسان من روحه . وتكشف بنية الدرع عن روح تتعرض  
لرياح الأزمة ، وزلزالها ، روح تتخفى وتتوارى وراء اللغة وتتوارى ضعفها بهذه القسوة

(1) يقول أبو العلاء في إحدى قصائد السقط : ( الشروح : 4 / 1434 ) .

- |                            |                          |
|----------------------------|--------------------------|
| 20- ولا يشوي حساب الدهرورد | له ورد من الدم كاللدام   |
| 29- ولا مبق إذا يسعى صدوعا | غوائر في الدكادك والإكام |
| 33- مشى للوجه مجتابا قميصا | كلامة فارس يرمى بلام     |
| 34- كدرع أحيحة الأومي طالت | عليه فهي تسحب في الرغام  |
| 35- نسيب معاشر ولدت عليهم  | دروعهم فصارت كاللزام     |

اللغوية أو الألفاظ الوحشية والغريبة الدرغ ذاتها سواج من حديد يشكل سجانا لتلك الروح وهربا بشكل ما .

البطولة اليااسة هي ما يتبدى فى الدرغيات من وراء ذلك التعسف فى فرض القيود على مستوى اللغة والفكر والحياة . تعد القيود أو اختيار التحرك داخل القيود مظهرا من مظاهر أزمة الروح ، التي تتظاهر بالقدرة والقوة والمتانة، ولكنها تخفى وراء تلك البطولة ياسا وضعفا وهشاشة . القيود ضد التفتح والتواصل والالتقاء ، التقوقع أو التحصن ، أو الحدب على الذات من أهم مظاهر الانفصال الروحي . مم تحصن الذات ؟ وما الذي دفعها إلى ذلك المنحنى الخطر ؟ أليست تلك هي مظاهر السقوط والمحنة أو المأزق الحضاري الذي تتعرض له الروح العربية ؟

تتخفى الروح وراء أقنعة كثيرة ، وتكشف الدرغيات عن قدر كبير من روح الإخفاق واليأس والتمرد أو الرفض ، ولكنها لم تصل إلى حد الثورة . فالثورة انكشاف وتوهج وتواصل واندفاع .. تحمل الدرغيات روح التناقض والانفصال والتنافر .. والمعاناة أو العكوف على الجرح والسخرية من الحياة والوضوح والألفة .

تشع الدرغيات قتامة وغربة واغتراباً ومشقة ، هناك أزمة بلا شك ، وفي الدرغيات أزمة عقل يشقى بالتناقض والقيود . مأزق الوعي بالأزمة والضعف والاغتراب . لماذا كان الرجوع إلى التراث والماضي كثيراً وأساسياً في الدرغيات، من خلال نماذج بعينها ؟ هل كان ثمة انفصال عن الحاضر أو اغتراب عن الحياة ؟

هل لاذت الروح إلى عالم خيالي تبنيه بإرادتها ينافس الحاضر والماضي معاً فكان على شاكلتها يموج بالتناقض والنزاع و التخفي والانفصال ، ويحمل ما تنوء به من هموم وآلام ؟ لماذا لم يكن للمستقبل والإشراق والأمل حظ في الدرغيات ؟ لم الحيات والسراب والليل والهلم والخوف والفرع والتلون والحيانة واليأس والضعف والانعزال والحرباء والاصطلاء بالشمس ؟ لم النار في الماء والماء في النار ؟ لم كان كل هذا الاشتباه

الذي تموج به الدرعيات أو تموج به الروح ؟ ما دلالة ذلك الرهق العقلي ؟ لماذا تغترب الروح ويغترب العقل ويغترب الإنسان ؟ لماذا الاعتداد بالغموض والغريب غير المألوف ؟ لماذا الفتنة بالدرع والعكوف عليها ؟ لم الإمعان في البعد والانفصال والغوص بعيداً ؟ لم كانت إرادة الانفصال والانعزال والرغبة في الصراع والحرب الضروس ؟ أين التوافق والتواصل ؟ أين إرادة الحياة ؟ أكان ذلك استسلاماً وياساً ؟ أم كان تعالياً على الحياة والأمل والياس جميعاً ؟

7- أكلت منكبي سمر العوالي وحمل السابري أكل متني

ما الذي طرأ على الحياة العربية والحضارة والإنسان وهزها وغيرها ؟ هل ثمة انتكاسة حدثت ؟ هل كان المجتمع يتعرض لفتنة ؟ هل عصفت به رياح التفكك والتبدد ..؟ ما الذي عز على الإنسان معرفته ؟ ما ذلك السر الذي لا يفض ؟ ما الذي عز على الإنسان استعادته ؟

تلبس الدرع طلباً للنجاة : (1)

- كم أرقمي من بني وائل موائل في حلة الأرقم

ولكن النجاة من أي شيء ؟ لعل النجاة من الدرع ذاتها !

- كبردة الأيتم العروس ابتغى بها جلاء الحية الأيتم !

فالدرع تلبس بغية جلاء شيء من جنسها (الأيتم العروس) (الحية الأيتم) ثمة تداخل واشتباه وجدل عميق بين الأيتم والحية ، وبين العروس والأيتم . يقول : (2)

- كهلال الحياة أو كقميص لهلال الحيات غير محبوب

فالدرع ماء الحياة يشبهه بهلال الحيات (هلال الحياة) (هلال الحيات) ، ألم يقل :

(- تصون أديما لا يجانس أصلها ويشقى بها من غيره ما تجانس؟)

(1) شروح سقط الزند : 4 / 1749 .

(2) المرجع السابق : 4 / 1883 .

ثمة مجانسة بينها وبين القرن الذي يشقى بها أو تشقى به ، تشبه العلاقة بالدرع مع العلاقة بالحياة أو المجتمع أو الناس / الآخر ، فالقصيدة تبدأ بـ (كم أرقمي .. موائل .. ) وتظل تتأمل الدرع ووصفها على مدى القصيدة كلها حتى تصل إلى :

- |                           |                                |
|---------------------------|--------------------------------|
| أطلال فد الشخص كالتوأم    | 37- أستغفر الله ولا أندب الـ   |
| بوقفة العجاج في سمس       | 38- هل سمس فيما مضى عالم       |
| إلى السماكين ولا الموزم   | 39- ولست بالناسب غيئنا همي     |
| ما أنا من ذي الخفة الأسحم | 40- وليس غرباني بمزجورة        |
| على اجتياح الحسب المظلم   | 41- مثل خفاف ساد في قومه       |
| أظعان كالنخل على ملهم     | 42- يا ملهم السخل ولا أتبع الـ |
| سد السبع لم آسف ولم أندم  | 43- ما لي جلس الربع كالميت بع  |
| تعوزه فيهم عشرة المكرم    | 44- على أناس من يعاشرهم        |

هنا يبدأ الكشف أو التواصل . فما تلك الأطلال وما تلك الأظعان ؟ وما علاقتها بالحياة أو المجتمع ، بفد وتوأم ، أو بالتوحد والاندماج ؟ وما علاقة ذلك كله بالدرع التي استغرقت القصيدة واستنفذتها ؟ ولماذا بعد ستة وثلاثين بيتاً يقول : (أستغفر الله .. ) ؟ فمم يستغفر ؟ وما علاقة الاستغفار بتقوى الله تعالى (فليتق الله ..) وبـ (كم أرقمي .. موائل ) وبـ (لو أمسكت ما زل ..) ؟ ما الشيء الذي امتنع على أبي العلاء ؛ فأغرم بـ (لو) وعاد يستغفر من التعلق بالفتقد الممتنع أو الأطلال ؟ ما علاقة قوله : (ولا أندب الأطلال ) بقوله :

- |                          |                             |
|--------------------------|-----------------------------|
| سد السبع لم آسف ولم أندم | ( ما لي جلس الربع كالميت بع |
| تعوزه فيهم عشرة المكرم   | (على أناس من يعاشرهم        |

ويقوله :

(وهي إذا الموت بدأ معلما نعم دثار الفارس المعلم) ؟

ما علاقة لزوم الربيع (كالميت) بالتدثر بالدرع؟ وما علاقة النفي: (لا أندب..) بـ (لم أسف ولم أندم)؟ وما علاقة كل ذلك بـ (أناس)؟ لماذا الإلحاح على نفي الندب والندم والأسف؟ ما علاقة قوله: (لا أندب.. وليس غربياني.. لا أتبع الأظعان.. حلس الربيع..)؟ هل كان أبو العلاء يسخر من الورد والمتزاحمين عليه من حيث ينفي التحسر وندب الأطلال أم كان يتحسر ويندب الأطلال؟ (ما لي حلس الربيع كالميت..).  
كذلك ما علاقة قوله:

(وحاجب لو حجبت شخصه	ليمس في المنة من زهدم)
(تزاحم الزرق على وردها	تزاحم الورد على زمزم)
(فلينفر الهندي عن مورد	منظره كاللجة العيلم)
(هازنة بالبيض أرجاؤها	ساخرة الأثناء بالأسهم)
(لو أمسكت مازل عن سردها	لأبصر السداع كالشيم)

بقوله: (ما لي حلس الربيع كالميت..) (على أناس..) ما هذا الحجب وذلك التزاحم؟ ما ذلك النفور والتناقض والسخر؟ عم يبحث أبو العلاء وإلام يدعوننا؟ لماذا كان السيف نابياً؟ ولماذا ينفر عن الدرع؟ لم كانت الدرع ورداً (منظره) كاللجة؟ ولماذا (منظره) ماذا عن جوهره؟ ما هذا الورد الذي يتزاحم عليه؟ وما دلالة التزاحم؟ ألا يشي التزاحم بشدة الشوق والظماً، ومن ثم شدة المعاناة إذ يصدر أبو العلاء عنها؟ ما دلالة الجزم والقطع والانفصال في (الأجزم) وفي موقف (أبي ضمضم) وترك الحمامة والخوف من أبي جهضم؟ ماذا يعني أمن الدرع؟ ولماذا (الكف والساعد والمعصم)؟ ما علاقة قوله: (ولا أندب الأطلال..) بقوله: (وأثرت أخلاق السرايل)؟

العلاقة بين الفذ والتوأم علاقة عميقة مؤرقة، ولعلها تتداخل مع العلاقة بيني الأرقم وبني وائل. هل كان أبو العلاء يصارع الوحدة والوحشة ويجاهد نفسه إذ قال: أستغفر الله..؟ أكان أبو العلاء يعاني انتكاسة في موقفه؛ ولذا يستغفر؟ هل كان نادماً

أو أسفاً أو نادباً ..؟ هل كان يصارع الموت ؟ يحمل فعل الاستغفار دلالة المأساة وربما السخرية من خلال المفارقة فما يستغفر الله من أجله هو سبب شقائه وعليه ذاته حسرته وندمه . ترتبط الأطلال بـ (التوأم) والدرع ، بيد أنه لا يندب الأطلال ؛ فقد الشخص كالتوأم ! ثمة صراع واشتباه بين التوحد والاندماج ، صار الاجتماع كالانفصال ، كلاهما موت (الموت المعلم - حلس الربيع كالميت) فهل الدرع حقيقة للنجاة ؟ هل صارت الحياة كالموت ؟ هل الكل باطل وقبض الريح ؟ تتكشف القصيدة عن مساءلة عميقة للوجود الإنساني ، وعن لحظة وعي عميقة بمأساته . فالفد كالتوأم والعزلة كغيرها والمجتمع عزلة أخرى ، كان بصير القوم أعمى والآن جليسه من عزل منفصل ، وكالميت الحي ! ثمة اشتباه عميق ينم عن أزمة شديدة .

أليس التوحد والتفرد والانعزال هو ما يشكل تلك العلاقات الضمنية التي تنظم القصيدة وتؤسس لرؤيتها ؟ إن الانفصال عميق والجرح غائر . الانتماء قضية :

- لا تنتمي كبراً إلى سابر لكن إليها سابر ينتمي

يتجادل الانتماء مع الكبر ، فلا اتفاق بينهما . وهناك محاولة لتقليب الانتماء والكبر . وربما للبحث عن شيء آخر مختلف عن هذا وذاك للخروج العجمة والحبسة واللجة والعيلم ، وعجم الدرع :

- مالي حلس الربيع كالميت بعد سد السبع لم آسف ولم أندم